
مجموعة قصصية
الفجر
كرم صابر
أبو عبدو البغل
مدونة أبو عبدو
وعد

الفجر

"مجْمُوعةٌ قَصَصِيّة"

كرم صابر

اسم المجموعة : الفجر

المؤلف : كرم صابر

الطبعة الثانية : ٢٠١١

رقم الإيداع : ٢٠١١/١٥٤٣٥

الترقيم الدولي : ٠-٢٩-٥١١٣-٩٧٧-٩٧٨

وعد للنشر والتوزيع

١٣ محمد حلمى ابراهيم –متفرع من شارع شامبليون – وسط البلد –القاهرة .

تليفاكس: ٠٢٢٥٧٤٥٨٧١

موبايل: ٠١٠٠٠٠٢٦٣٢٦-٠١٠٩٧٦٩٧٤٩

www.darwaadalmasry.com

darwaad@hotmial.com

darwaad@yahoo.com

الإشراف العام : **الجميلي أحمد**

الإخراج الفني : هبة يحيى

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة جديدة إلكترونية : ٢٠١٥

للضَّحايا
الذين اغتالهم الظّلام،
ودفعت مشاعرهم الثَّمن

"التوازن"

حين فتح عيادته بالحارة أحسَّ بالغربة وسط المرضى الذين كانوا يتردّدون عليه، ذلك الوسط الجديد الذى دخله فجأة؛ ليتحول من شابٍ أَعْيته الأسئلة لإنسانٍ لـه قيمة، في الحي يتصارع الميكانيكى، والحلاق، والطعمجى، والقهوجى، والسواق، والكبابجى، والجزّار، والدلاّلة، والكوافيرة، والدكتور، والصيدلى، والعصّار، وأصحاب محلات الموبايلات ومقلة اللبّ على المعايش، يناكفون بعضهم بقوانين غريبة اِكتشفها بالمعاشرة الطويلةِ، جعلتهم يأملون السعادة رغم احتياجهم للقرش؛ لكنّهم تسامحوا وابتهجوا رغم الرزق القليل، إنَّه التعايش الذي يحاول تعلّم حروفه حينما كان يزوره أو يحدثه أحدهم بالشارع يسأله عن دواءٍ لآلامه.

يسأل نفسه وهو يمشى وسطهم عن سرّ ما يربط هذه الشخصيات، ويجمعها، حينما لا يجد إجابة يُردّد: "إنهَّ الانسجام"، أبطاله أهل الحيّ، لا ينسى الود والحنية التى تخرج من عيونهم، وهم على سرير المرض يحكون عن وجيعتهم!

كلّ شخص قبل دوره وقام به بهدف البحث عن مساحة مُحدّدة بالحارة ليحجزها لنفسه ويطبعها فى ذاكرة الآخرين، حتى إذا أتت سيرته يتذكّرون تلك المساحة التى حجزها بقصصه وصراعاته، إنهّا البراعة فى الحياة بالاندفاع فى ممر التسامح، لينسجم مع الآخرين رغم اختلاف الأهداف والطموح، وطبيعة العمل والمنشأ.

"لغة التعايش"، اكتشفها فى قلوبهم، وكونت فضاء المعاشرة التى يعيش الجميع داخله، عاش بينهم فى هذا "العالم المتوازن" عشر سنوات يتابع مداخل المقاهى والمحلات والبيُوت التى تهدّمت، أو ارتفعت كأبراج، أو التى حافظت على صرامتها، يراقب البنات الصغيرات اللاتى كبرن ليصبحن نساء مُقبلات على الحياة، وعملن بكل المهن، عاشر الصّبية الذين كبروا وتعلّموا فنون الحياة الجديدة بمفاهيمها الغريبة الجديدة وارتضى الناس وجود هؤلاء الصبية على نواصى الحوارى، يتسأل اليوم دون سبب وهو يدخل عيادته: "ما سر هذه اللُّغة المسجلة بينهم كومضاتٍ والتى تجعلهم يستمرون ويواجهون عالم مختل".

ومضات الانسجام التى تخرج من عيون الكلّ للحفاظ على مكانتهم القديمة هى سّر الوجود، لم تختلف عيون الجميع "الشيخ والقسيس والحشاش"، وهم ينظرون لأنوثة "سيّدة" أو "زهيرة"، أو غيرها من النساء اللاتى يسرن بالشارع، فيتمنوّن مجرد الرضا من عيون مبدعات للحياة.

نفس الوميض المُبهج الذى يعينهم على الحياة؛ كى يبقوا متوازنين، هذا العالم الغامض الذى عاش بداخله أكثر من عشر سنين، ولم يفهمه بالرغم من أنَّ الجميع يعرف دوره.

رغم انتشار صبية جُرِحت وجوههم، وشباب مختل عاطل ، وبنات مُبدعات فى الرقص بالشارع رغم ارتدائهنّ أحجبة أخفت شعورهنَّ، لكن الناس الطيبين أجابوا على أسئلته فى صمتٍ وهم ينتظرون بناتهم اللاتى يتأخّرنَ لمنتصف الليل بقولهم: "الحياة صعبة، ويجب أن نقبل!"

شاهد مُشاجرات المنسجمين، وخلافاتهم على المساحات الباقية فى الشوارع؛ للاستيلاء على الفضاء الذى يحمى انسجامهم.

أحسَّ بالخطر وهو يمسح الدم من على وجه المرضى والشباب الذين دخلوا العيادة، ليُوقف دماءهم النازفة، قال لنفسه: "هل هؤلاء هم الذين مدُّونى بالأمل خلال السَّنين الفائتة؟!"

تغيَّرت الدنيا، وظهرت العمارات التى بناها الجزّار والسباك، ارتدت بعض النسوة الملابس الغريبة التى أحضرها أزواجهنَّ من بلاد البدو، لتختفى وجوههنَّ وأجسامهنَّ، ومع ذلك كُنَّ ينزلن السوق يُحاولن البحث عن مساحةٍ للتعايش!

فى الأيام الأخيرة أحسَّ بأنَّ الانسجام كان حُلمًا، قال صديقه وهو يشكو له حال الأهالى: "يا دكتور إنَّها الحيرة والغلّ والدم الذى سيتفجَّر قريبًا فى الشوارع".

غادر الشارع قائلاً: "هؤلاء الأبطال جميعًا الذين واجهوا الحاضر، دون أن يفقدوا المساحة التى اكتسبوها خلال السنين، لن ينهزموا أو يُحبطوا ، يسيرون مبتهجين ممتلئين ثِقةً، ليعيدوا للهواء الملوّث نقاءه".

"التدهور"

منذ بداية العام لم أعد نفس الشخص الذى عرفته زوجته وأبناؤه طوال العشرين عامًا الماضية، كنت دائم الانفعال، وجاهزًا دائمًا للرد بقوة وقسوة على أىّ شخصٍ يُحدثنى، حذّرنى زملائى بالمستشفى أنّ المدير سوف يفصلنى؛ لأنّنى أُعامل زملائى بطريقةٍ مُوحشة، قلت بصدق أخافهم: "يا ريت!"

قالت زوجتى: "لا تشترِ شيئًا من البائعين، الجميع يشتكى من طريقتك"، صباح اليوم قال الفران: "لولا العِشرة لأطلقت العمّال عليه، وهو يسبّنى ويتهمنى ببيع الدقيق فى السوق السوداء"، واستكملت بهدوء: "العيشة صعبة، بس فرجه قريب يا خويا، براحة على نفسك شوية"، لم أرد عليها خاصة أنَّ ابنى قد دخل من باب الشّقة.

نظرت للساعة وقلت: "لسة بدرى، الساعة عشرة وحضرتك لسة جاى من المدرسة؟!" سألته بغيظ: "كنت فين يا واد؟!" لم يرد لأنه كان يعرف منذ عدة أيام أنّنى أتلكّك للذباب، صرخت وأمسكت رقبته وألقيته على الأرض، داست قدماى وجهه وبطنه، لم يبكِ أو يصرخ، ظللت أضرب فيه حتى قال: "أنا مش قاعد لك فى البيت"، حلّ الصّمت لدقائق علينا وتوجه للدولاب ليجمع ملابسه، دخلت حجرتى وظللت أَكيل له السُّباب وأنا أتمدّد على السرير، كان دمى يغلى، فجأة قمت وذهبت لحجرته ولطمت درفة الدولاب بوجهه، وقلت: "اخرج يا وسخ، نام برة فى الشارع، ولاّ روح عند عمّتك ولاّ خالك! اخرج ولا تُرينى وجهك للأبد".

حاولت زوجتى تهدأتى وبكت، فجأة نزلت الدموع على خد ابني، وقال: "ما تزعلش يا بابا حقك علىّ، بس أنا عايز أقول لك على حاجة وما تضربنيش"، قلت له: "اتكلم ".

أخذنى لحجرتى وأغلق الباب، وقال: "أنا آسف يا بابا لأنَّى علَّيت صوتى، حقّك علىّ، بس أنا خايف عليك لحسن تموت!!" وجدت نفسى آخذه بحضنى، ودخلنا فى نوبة بكاء.

استعادت زوجتى حلمها الذي حكته منذ ساعة وقالت: "إنّها رأت حُلمًا مفزعًا كنت أبكى فيه وأنا أدخل من الباب مسرعًا وأنادى عليها، وأعطيها لفة بها طفل ميت"، فسألتني: " هي ولد ولا بنتّ !!"، احتضنتنى ومسحت دموعى، وقالت: "حقك علىّ، بمر بأزمة يا خويا، استحملنى شوية يا محمد".

أشعر بالفعل أننَّى سأموت، فاستكملت باكية: "لا تخف، ليس هناك شيء يستحقّ الخوف، أنت بتحبنا زيادة عن اللَّزوم، متخفش، وبعدين مين هيعّمر الأنبياء ماتوا ياخوي"، قمت من سريرى وأخذت ابنى بين ضلوعى، وقلت بعد اطمئنانى بأنه قبّل اعتذارى: "نم يا عمّ النهاردة مع ماما"، فرد بسعادة: "ماشى".

"الأمير"

الانفجارات تتوالى فى رأسى، ليست هناك حواجز أو أسقف، خرجت من الخندق، وسِرت بالشوارع أُناطح القيود، حاولت زحزحة الأحجار المحيطة بقلبى، فهددتنى وازاحتني باتجاه الموت، أحاول ملاحقتها لأوازن بين النار والدخان.

كان يمشى بجوارى وأنا أُحدث نفسى بكلّ تلك الهلاوس، قال كأنّه يسمعنى: "لماذا تقول هذا الكلام؟ هل أنت مستعد لإعادة كرامتك؟" قلت لنفسى دون أن أنظر لِنَنَّ عينيه: "ليس هناك أحد فى الحى معك، الجميع ضدّك، اتفقوا على رجمك، أنت الذى كنتُ تقف صامدًا طوال الهزيمة، وتحتاج لأحدٍ يقول لك فى صرامةٍ "استمر"، اليوم ترغب فى العودة ".

أنت الآن خارج الخندق.. هل يمكن أن أُصدّق ذلك؟ خمسين عامًا وهم يضعونى هناك، ويقولون إنَّ الطريق الوحيد للخروج هو بناء الجسور.. خمسين عامًا وأنا أبنى قيودًا حول جسمى حتى احترت بعدها فى الطريق.

لم أرَ أبدًا وجهه وهو يعطى الأوامر أو يتحدّث بطلاقة، لم أسمع إلا صوته الآمر لأستمر حتّى ارتفعت البنايات حولى، ليلة الأمس قررت التوقف، جاءنى صوته وقال: "سوف تموت، استمر فى البناء"، لكن إرادةً ورغبة أخرى ملأتنى، قلت "لن أستمر".

كانت يداه قوية وهو يصفعنى، حاولت أن ألمح عينيه.. المرة الوحيدة التى قررت النظر إلى وجهه اختفى، قلت بذل: "خمسين عامًا تأمرنا ونطاوعك.. خمسين عامًا نبنى ليعلو مجدك، ومع ذلك تحرمنا النظر فى عينيك، لن أستكمل البناء إلاّ إذا رأيتك!"

رغم ان الدنيا كلّها خرجت من بطن الموت ، لكنَّهم مازالوا يأتون بأحلامى، يحاولون إيقاظى، يسألوننى: "من أنت؟!!" اقول لنفسى: "مِن الغد سأكون إنسانًا آخر، سألبس البدلة وأضع الكحل، وأذهب لأماكن تواجدهم وأنام معهم، سوف أتدفَّأ بأرواحهم التى وهبوها للحبّ".

كنت قد قررت التوقف حين أحاطت عساكره المجتمعين، بعد ان خلعو قلوب الصبايا، وأكلوا مشاعرهم، وعلّقوهم من شعورهنّ بالزنازين التى ظللتُ خمسين عامًا أبنى فيها مُتوقَّعًا النجاة، عندما شاهدت رؤوسهم على الأبواب والحوائط التى ارتفعت حولى صرخت بعساكره ليتوقّفوا، لكن عيونهم قالت: "توقّف أنت أيها الأبله فلن يعفو عنك مهما فعلت"، كان النبض يعود لقلبى، وانا اسمع صراخه من خلف الأبواب: "سنعلّق رقبتك معهم"، قلت: "لا يهم، المهم أن أرى وجهك

الآمر الناهى"، كانت حيلتهم فى السنين الماضية أن أستمرّ مُعتقدًا أنَّ الأمير موجود، حينما جاءنى صوته يستعطفنى، قررت الانفجار، أمسكت معولى وبدأت الهدم.. هربت عساكره.. ولم يبق منهم إلاّ الخيال.

"الحساب"

أحداث كثيرة، أحلام مُفزعة، بشر مجرمون، وعيون تغدر بأحاسيس البراءة، عايشتهم زمنًا طويلاً.

كيف مرّ هذا العمر، وتحمّلت تلك الأحداث التى لا أستطيع ملاحقتها أو تسجيلها؟! لم أكن أُصدِّق كيف تحول دفء عيونهم فى لحظةٍ إلى نار! سأرمى بنفسى وسطهم لأكتشف سرّ تحوّلهم.

مواقف كثيرة تغيرت، أصبحتُ أكثر إيمانًا بحركتهم وأرواحهم، حين شاهدتهم فى الشارع يصرخون مُطالبين بالإيمان، كنتُ أكثر ثقةً بنفسى فى أنه يمكننى العودة لبيتى متطهرًا؛ أيامًا كثيرة وطويلة تُقَّدر بالدهور بسبب كثرة الانفعالات والخيانات، وأنا أعيش دون اهتمام بأصواتهم.

كيف نجوت رغم رائحة المستنقع المميتة التى تحيط بحياتنا؟ لم أكن أُصدِّق مرة أخرى أننّى عُدتُ هنا، لأضع مجددًا احلامي بكيس المشاعر الذى أحتفظ به في مكانٍ لم أقل لأحدٍ أبدًا على مكانه.

كانت وجهة نظرها سليمة، ابعد عينيك عن رائحة المستنقع حتى لا تلوث روحك، نحن نعرفهم، لا يبغون إلا مصالحهم، ولا يهمُّهم إلا طعم الدّم.

قال صديقى صباح اليوم على المقهى وسط الغلابة: "أنت بتشتغل لحساب مين؟!" قلت: "ليس لى حساب"، قال "هُمَّ هيجمدوا الحسابات؟!!" كنت أتمنى أن أقول: " أعمل لحساب الصّباح"، لكن الإجابة لم تأتينى إلا بعد رحيله.

عُدت وحيدًا وقلت: "أعمل حساب الناس الذى فجَّرهم احتياجهم لبهجة العيد"، تمنّيت أن يعود الامس، ليسألنى صديقى على المقهى "بتعمل لحساب مين؟!" لأردّ عليه بقوةٍ، وأقول: "لحساب النّور يا أعمى!!"

أخذت المخدّة فى حضنى وأنا على يقين بأنَّ عام الخلاص قد بدأ، كنت متأكدًا بأنّنى سأحقّق كلّ الأمانى، لن أهزم، ولن يفجعنى الخوف مرةً ثانية، سوف أنتصر وأُحقّق الأمنيات كلّها دون نقصان.. لأستحقَّ الحياة.

فى اليوم التالى سأذهب إليه على المقهى، وأنادى عليه وسط الناس، وأقول له بكل قوة: "أَعْمل لحساب روحى".

"الساعة كام؟! "

حين سألتنى البنت الصغيرة ببراءة: "الساعة كام يا عمّو؟!" قلت الساعة: "عشرة"، فى اليوم الثانى سألتنى: "عمّو الساعة كام؟!" قلت: "الساعة عشرة"، ومرّ شهر وهى تسألنى "عمُّو الساعة كام؟" وأنا أُردّد: "الساعة عشرة".

سألتنى منذ اسبوع: "عمُّو الساعة كام؟!" قلت: "الساعة اتناشر"، ظلّت أيام طويلة تسألنى، وأنا أُردّد "الساعة اتناشر".

منذ يومين سألتنى: "عمُّو الساعة كام؟!" فقلت: "الساعة واحدة"، وعندما سألتنى هذا المساء: "الساعة كام؟! قلت: "الساعة اتنين".

شيء يجرى بينى وبين بنت جارتى التى لم يتعدَّ عمرها العاشرة لا أعرفه، وكأنّنى ملك الوقت، كانت تنظر لى بخُبثٍ وتضحك، حين تسألنى تتوقّع أن أُجيب بشكلٍ آخر، لم أفهم أسئلة الصّغيرة إلا حين صرخت أمّها من شقّتها فدخلت لأغيثها، وجدت جثة زوجها غارقة فى الدم، اجتمع أهل البيت، حاولو أن يفهموا ما جرى، قالت الزوجة بهستريا وشعرها المحلول، ويدها المُمسكة بالسكين تُدلّل على بكارة الجريمة: "منذ شهور وهو عاطل عن العمل ويُهيننى، تحمَّلت الدنيا كلّها، وأقول "بكرة الحال يتعدل"، كلّ يومٍ أساله "قوم يا سمير" شوف شغلانة.. القهوة مش هتأكل العيال"، كان يضربنى ويسبّنى، وأقول لنفسى "قهرة القعدة والحاجة أتلفت أعصابه، استحملى يا بت شوية"، الليلة دخل علينا وعايز يموّت البنتين؛ لأنّه زهق من ذُلّ الحاجة، قلت له "أيام وهتعدّى يا أخويا، استحمل شوية يا سمير"، عزم على قتلنا ليرتاح من طلباتنا، حاولت أن أثنيه عن طلبه، كان قد أصرّ، أمسك البنتين بعد أيقظهما ووضع السكين على رقبة الأولى فقطعها، وجدت نفسى كالمارد المنفجر، سحبت السكينة من يديه، لأمنعه من قتل البنت الثانية، و فتكت بقلبه، كان الدم ينزف منه وهو يضحك، قال بحُرقة: "خلَّى بالك من نفسك، ومن رجاء"، وأخذها فى حضنه ومات.

كان المنظر مريبًا، قررت الخروج بعد حضور الإسعاف والبوليس، قابلتنى البنت الصغيرة، وقالت: "عمُّو الساعة كام؟!" قلت: "الفجر طِلع يا رجاء!!"

"كيس الوَسَخْ"

منذ يومين كنتُ بغرفة العمليات بإحدى المستشفيات، كانت العملية هى إزالة الكيس المتبقَّى من (الوساخة) بجسمى، حضر أهلى وأصدقائى ليشاهدونى بالحجرة أثناء العملية.. كان توصيفُ كبير الأطباء مُذهلاً، وقال: "لا أمل فى علاجه".

قام الدكتور مع فريقٍ كبير من المعالجين والممرضات بالالتفاف حولى وأنا بالحجرة، البنج يسرى فى عروقى رغم يقظتى، قلت لهم: "كيف تكوَّن هذا الكيس الغريب بجسمى؟!" لم يهتمُّوا بأسئلتى، وانهمكوا فى تقطيع جسدى!!

الآن لا أتذكّر شيئًا ، لكنّى أعتقد أنِّى صحوت فى يومٍ ممطر وكتبت على باب الحجرة بالخط العريض لأسرتى "لا أرغب فى سماع صوت أحدكم "، وأغلقت الحجرة جيدًا، واستجمعت كلّ العروق والشرايين بجسمى التى لا يزال بها أوساخ ونظّفتها، كنتُ آَخُذ الدّم الفاسد وأُخفيه بالكبد، نظّفت القلب، الرئتين، الكليتين، المعدة، الأمعاء، العقل، لتصبح أجهزتى طاهرة، لكنّ الكبد كان قد امتلأ بالوسخ، لم أتمكّن من قذف السّموم مع البراز خارج جسمى.

خانتنى مناعتى رغم كلّ القوة التى استمددتها من نور الشمس الذى أغرق الحجرة المغلقة.

ذهبت للمستشفى بعد أن أوجعنى الألم وأفقدنى الذاكرة، بعد تحسّس الأطباء أجزاء جسمى، بحلقوا بالأشعة ونتائج التحاليل، لم يتعرّفوا على مكمن الألم والقذارة التى طهرتُ روحى منها منذ شهر، قلت لهم دون مقدّمات: "كيس الوساخة بالكبد، من فضلكم أسرعوا قبل أن ينفجر بجسدى"، لم يسمع أحد كلامى، رغم توسّلاتى بالإسراع فى إزالته؛ لأنّه أنهكنى، أخذ قوتى، وسّخ روحى وأفقدنى الوعى، رغم ذلك ظلّت باقى الأجهزة تعمل، أُصيب كبدى بالتهابٍ وتهتُّك، لكنَّه لم يتمكّن من روحى.

قرّرت مساعدة كبير الأطباء فى التوصيف، لإجراء العملية بأقصى سرعة، فدعيت أصدقائى وأهلى، ليشاهدوا بأنفسهم تطهير روح البشر من الوساخة، ومن العجيب أنَّ الأطباء آمنوا بتوصيفى، وأجروا العملية بناءً على أوامرى!!

لم يصدّق أحد ما شاهده كبير الأطباء بنفسه، كان يبحث عن موطن الألم رغم صراخى بأنَّ كيس الوساخة المتبقَّى فى كبدى، لكنَّ أحدًا لم يصدّق بأنّ مريضًا مثلى يمكن أن يقول الحقيقة.

الجميع تحسّس قلبه وقدميه ، فقلت لنفسى: "أعلن تجربتك لتساعدهم فى إزالة الوسخ من أجهزتهم، لكنَّهم ظلّوا يتنفّسون بصعوبة وينعمون بالمرض، لم يسمعوا صوتى وصراخى"، وقالوا لأنفسهم: "هل يمكن أن ينجح المريض فى اكتشاف المرض والعلاج؟!"

إتّكأت على عصاتى، غادرت المستشفى وأنا حزين لأنّهم نظروا لوجهى فى بلاهةٍ وعدم ثقة، لكنَّ مريضًا عنيدًا قابلنى عند الباب، وصرخ: "ساعدونى كبدى يتمزّق، ساعدونى لأُطهِّر روحى".

وقف كبير الأطباء مذهولاً، قال للأطباء المجتمعين: "مرض الكبد أصبح ظاهرة، لا يمكن علاجه بالأدوية"، صرخ فيهم كأنّه فهم سبب الألم: "جهِّزوا غرفة العمليات يجب إزالة كيس الوسخ"، نظرت من بعيد للمستشفى، واستكملت السير فى الشارع مُتّكئًا على عصاتى.

"الصَّحافى"

حكت حكايات غريبة عن الأصدقاء الذين باعوا القضية، ورغبوا فى عشقها، كانت تتحدّث بطلاقة، علامات الاندهاش أذهلت عينى حين قالت: "امسكنى من صدرى بالأسانسير"، وقلت له: "عيب يا رفيق "، قال: "أنا أحبّك وأحتاج دفء عينيكِ"، قلت: "إنَّ الجمهور ينتظرنا لنعلّمهم كيفية التمرد"، قال: "لا أستطيع منع نفسى".

فتح الباب وأُعلن وصولنا للجريدة؛ لمقابلة الراغبين فى معرفة الحقيقة، قلت للنّاس المستقبلين: "الأستاذ حضر، وسوف يعلَّمكم كل شىء"، وذهبت للحمّام لأغتسل.

"شوقى" صديقى صحافيًا مُشاغبًا، ويدعو الناس للتمرّد، ويتكلّم فى حقوق الناس بطلاقةٍ جعلت الجميع يعتقد أنَّه الملاك الرقيق.

لم يكن يتصوَّر أحد وهو المتزوّج من رفيقة، وقد رزقهم الله بطفلين أن يتحرّش بـ "أمل" فى الأسانسير.

فى الايام الاخيرة يغلق "شوقى" تليفونه حتى لا يسمع مطالب المتمردين الذين دفعهم للنزول للشارع، دون أن يُشير لهم على الطريق الصحيح ، ويقول: "يجب أن يختاروا بأنفسهم مصيرهم، ليتحمَّلوا وحدهم النتائج".

حكت "أمل" عن إخوتها الذين سرقوا ذهبها من الحقيبة، وأختها التَّى تلبس قمصانها وملابسها الداخلية دون حياء، وتقول: "اشمعنا أنتِ، شايفة حالكِ، وبتعاشرى الرجّالة!"

قالت كثيرًا وهى تفتح خزانة الأسرار وأنا مندهش، انطلق لسانها يحكى، وكأنَّ هذه الأمور عادية.

أكّدت أنَّ رئيس التحرير يُقاول المسؤولين وذوى النفوذ حتى لا ينشر أخبارهم، بعد أن يُنبئهم بالمعلومات التى يجمعها الصّحافيين الصغار.

أردفت بأنّها سمعت منذ أسبوع حواره مع "شوقى" وهو يتحدّث عن حصة كلٍّ منهم فى وقف النشر بفضيحة الأغذية المسمومة.

قالت إنه قابل اليوم الماضى مساعد وزير الداخلية، لوقف حملة نهب الأراضى ضد أحد أقارب الرئيس، وسمعت رئيس التحرير وهو يقول بثقة: "إنَّ الجريدة ستخسر ثلاثة ملايين جنيه

لو توقّفنا عن النشر"، رفع وزير الداخلية سمّاعة التليفون وحدّث أحد الوزراء؛ لتسهيل تمليك قطعة أرض كبيرة بالتجمُّع الخامس لرئيس التحرير، لتعويضه عن الخسارة.

حكت عن السرقة والنّهب الذى يقوم به المدير، وزملاؤها المتواطئين؛ ليكسبوا ملايين الجنيهات مقابل التلصُّص وبيع القضايا، قلت بذهول: "ياه كلّ ده بيحصل !!" قالت بثقة: "يا إبن الهبلة أنا كنت فاكرة أنّك فاهم كلّ حاجة!!"

"الوظيفة"

دخل مكتبى كصاحب مكان، وجهه ملئ بالنّور، وقال: "إيه يا عمّ أنت فين؟ عملت لينا إيه؟ ابنى غلبان وعايز يرجع لشغله، كلَّم حد من معارفك، إحنا مش بتوع قضايا، ده آخر العنقود، خلّف عيلاً صغيرًا من يومين شبهى".

لم يعطنى فرصة لأرد عليه، واستكمل: "أبوى قبل ما يموت قال لى: "لو عايز تشوفنى ابقى روح سيدنا الحسين، وأنا أجيلك بالمنام"، كان راجل بركة وطاهر، وهو بيموت قال لى: "جدّك شكل الشيخ الشريب، اللَّى مرسوم على باكو الشّاى! كان تاجر خضار فى السّوق قد الدنيا"، قال لى قبل ما يموت: "يا حامد – بعد ما أخذنى على السرير جنبه – الحسين قريب منَّى قوى يا ابنى، لو احتجت حاجة روح عنده هيلبَّى طلبك، ما تخفش من الدنيا يا "محمد" أمانة عليك، لو عايز تشوفنى، أو احتجت حاجة، ابقى زور الحسين".

بعد ما مات تعبت قوى، كنت شغَّال عامل باليومية بالسكّة الحديد، كانوا بيقبضونى كلّ شهر بعد ما يخصموا الأجازات وأيام الجُمع، كنت بأقول للمدير: "هو إحنا ملناش حقّ فى الإجازة؟! عملنا مشاكل كتير، لحد ما حسبوا يوم الجُمعة يوم شغل".

أبوى جانى بالمنام، كان لابس جبَّة كُحلى وعمّة بيضاء، كان وجهه يشع بياضًا، قابلنى فى ورش السكة الحديد، قال لى: "إزيك يا محمد"، قلت له: "إيه اللَّى جابك هنا يابا، أنت مش مت"، قالى: "يا ابن الكلب دا أنا المدير بتاع السكّة كلها، قدَّم طلب علشان أثبّتك!" قلت: "يا عمّ مفيش تعيين، دا إحنا غُلبنا مع رؤساءنا"، قال لى: "يا ابن الكلب هو فيه رئيس بعدى، أنا المدير، طلبك مقبول يا محمد.. قدَّم".

تانى يوم الصبح قدّمت الطلب، واتعيّنت!!

"أنا اتبهدلت قوى يا أستاذ، بس الحمد لله اشتغلت فى السكة ثلاثًا وأربعين سنة، من غير ما آخذ يوم إجازة ولا جِزا، ولا قدر حد يمسك علىّ غلطة".

كنت مسؤولاً عن عشرين محطّة من رمسيس للخطاطبة، كلّ الموظفين والسّواقين والكمسارية فى كلَّ المحطات أصحابى، واعتبرونى أبوهم، كانوا بيعينوا مرتباتهم وحوافزهم معى بالشهور، عمرى ما طمعت فى جنيه بتاع واحد، عمرى ما حد قال علىّ كلمة وحشة، قلبى كان عمران بالحبّ.

يا أستاذ دا أنا شفت "الرسول" فى المنام طلع لىّ، وقال لى "قم يا "محمد" زرنى يا واد"، كان وشه أبيض فى أبيض، كان حتة نور، قمت من النوم صلَّيت ركعتين شكرًا، وقلت "جالك الفرج يا محمد"، نزلت على القهوة، سبحان الله قابلنى "أبو شنب" بتاع السياحة، قال لى: "يا عمّ محمد أنت معنا السنة دى فى الحج"، قلت له يا أبو شنب هو أنا حِلتى حاجة"، قال لى: "يا راجل الجمعية مرشّحاك، هتسافر معانا وتتولها"، قلت: "يا قادر يا كريم، دعوتك يا رسول الله استُجيبت".

ساعات أقول لنفسى: "يا رب الحِمل ثقيل علىَّ، شغل ليل نهار، وتربية عيال، أنا عندى خمس عيال علّمتهم كلّهم، واتجوزوا، بنتى ربتها كأميرة، وجوزتها موظفًا محترمًا، صاين العيش والملح، عمره ما شتمها أو قال لها كلمة تزعلها، علشان كدة أنا دايمًا أقول لها "يا أميرة جوزك ملاك، كله بركة، اوعى تزعيله يا بت"، تقول لى: "يابا لولا الكفر لكنت عبدته!" أولادى كلّهم متهنيّين ومرتاحين، أنا تعبت قوى عليهم، مفيش غير الواد الصغير اللَّى كلّ ما أوديه شغلة يهرب منها، هعمل إيه آخر العنقود ومدلّع شوية، بس نفسى أوظّفه علشان يلاقى مرتب يستره".

أنت عارف يوم مارحت المترو علشان أعينه، قابلت المديرين كلّهم، ولادى اللَّى دربتهم فى محطة الخطاطبة، بس مهندس منهم عمل ميعرفنيش، كانت روحه وحشة، مسلّمش علىّ، زميلاه قالوا له: "إيه يا جرجس نسيت عمّك محمد؟" قال لهم "مش فاكر"، قالوا له: "عمّ "محمد" اللَّى دربك، نسيت محطة الخطاطبة؟!!" قلت له: "نسيت يا بشمهندس جرجس؟! علشان يا عمّ بقيت مهندسًا كبيرًا"، قال: "مش فاكرك يا عمّ "محمد" "، قلت: "فاكر لمّا وصّيتنى أجوّزك بنت الأستاذ "صليب"، كانت زى القمر، أنت كنت عارف أنَّى الوحيد اللَّى يؤثر على "صليب" لأنىَّ حبيبه، كلّمت "صليب" علشان يقابلك، قال: يا "محمد" البنت زى لهطة القشطة والوردة الصابحة، و"جرجس" ملاوع وشرَّانى، أجوزها له، وأفضل حزينًا طول عمرى؟!!"

بصراحة أنا وافقته على رأيه، وخاصمتنى ثلاث سنين.

ضحك المجتمعون ، وقالوا : "كفاية يا عمّ "محمد" ده عمره ما هينساك"، بس رد الوسخ الجميل، اللَّى عدَّى عليه السنين، حطّ الواد ابنى فى دماغه، إشى خصومات تأخير، وإشى غرامات ومخالفات لحد ما أخذ تقريرًا زى الزفت وفصلوه.

الواد قال لى يابا: "الوظيفة النهاردة ما تأكلش عيش، وهضيَّع عمرى على الفاضى، أنا هفتح مشروعًا".

بس أنا برده نفسى يبقى عنده مرتب ثابت يستره.

يا أستاذ أنا حضرت حروب النكسة، واليمن والاستنزاف والعبور، لم تخدشنى رصاصة، أهلى وأصحابى كانوا يتعجبون ويقولون: "زى القطط بسبعة أرواح"، فى اليمن قعدنا بين الحياة والموت ثلاثة شهور، كلّ ما نتقدم علشان نقضى على العصابات فى الجبال يهربوا، كان فيه ممر بين جبلين لازم يمرّ منه الجنود لمحاصرة العصابات، كلّ ما يمر جنودنا يُطلقون عليهم الرصاص من أعلى الجبال، مات عساكر ياما مصريين، نزلنا ثلاث فرق مظلاّت بالطيّارات فوق الجبال، قضينا على العصابات، احتلّينا مواقعهم، مرت الدبابات من الممرّ بسلام.

أنا اللّى عّينّى فى سلاح المظلات "عبد الحكيم عامر" كنت بأخذ من الجيش ثمانية وأربعين جنيهًا ونصف فى الشهر، كان أحسن موظف فيكِ يا مصر مرتبه ما يزيدش عن عشرين جنيهًا.

أقول لك، بعد ثلاثة شهور، وعبور القوّات من ممر الموت وجبال الطيور الجارحة، قدرة ربنا وحدها جعلتنا نحتلّه، ونقضى عليهم جميعًا.

فى يوم كنت خلاص زهقت، صبرت بما فيه الكفاية، نفسى أشوف العيال والولية وحشونى يا ناس ولا جوابات ولا تليفونات، أنت والجبل والموت والطيور الجارحة والسّماء السابعة.

قلت: "يا ربَّ كفاية كدة، عايز أشوف عيالى وأهلى"، صرخت "يا رب أنت سامعنى؟!" انفتح باب السّماء كأنك فلقت بيضة نصفين، نزل النور علىّ من السماء، أحاطنى من كلَّ جانب، صرخت من الرهبة وأطلقت رصاص البندقية، جاءنى زملائى وقائد الكتيبة، كان إطلاق الرصاص معناه الخطر، اقتربوا منِّى، ملقوش حاجة، قالوا: "إيه يا "محمد"، فيه إيه؟!!" كنتُ أصرخ وأقول لهم: "شايفين النور اللّى نازل من السماء، حد يحوشه عنّى"، صرخ قائد الكتيبة: "يا ابن الكلب دى ليلة القدر النهاردة، والسّماء مفتوح لك، ادعِ لينا يا واد نرجع بالسّلامة"، لم يكن أحد غيرى يرى النور، احتضنونى وتباركوا بى، دعوا جميعًا السماء المفتوحة للعودة سالمين.

تلقَّى اللّواء فى نفس اللحظة إشارة بالعودة، كان الثوار قد تسلَّموا حكم بلادهم، احتفل بى الجنود واللّواء، سمَّونى "محمد المبروك"!

بعد عودتنا منتصرين لم ينسَ اللواء "على" هذا اليوم لدرجة أنَّه بعد حرب العبور قال لى: "لن تخرج من الجيش، سوف تمد الخدمة، لن نتركك أبدًا، أنت حارس علينا"، قلت له: "يا سيادة اللّواء أنا عايز أرجع لعملى بالسكّة الحديد، أحتاج لرؤية أولادى كلّ يوم، أنا خدمت البلد بما فيه

الكفاية، شفت الويل وربنا نجَّانى، علشان خاطرى ساعدنى لأخرج"، ثانى يوم صرفوا لىّ شيكًا بعشرة آلاف جنيه، وأطلقونى.

بس ساعات أقول: "يا ربَّ الحِمل ثقيل، طب الأنبياء أنت عارفهم، واسمهم محفوظ فى اللّوح، لكن الغلبان "محمد حامد" بتعمل فيه كدة ليه؟!"

قلت: "يا عمّ "محمد" أنت ملاك وشيال، مايهمكش حاجة.

ربنا بيختبرك"، قال : "مراتى جت لها جلطتين ورا بعض وعجزت فى البيت، أنا اللَّى بخدمها، عندى سبع وسبعون سنة بغسل هدومها وأغيَّر لها، لمؤاخذة؛ لأنّها لا تستطيع دخول الحمَّام، بنزل السوق أشترى الخضار، وأطبخ وأحط جنبها الأكل"، وأقول: "ليه يا ربَّ، دا أنا عمرى ما زّعلتك، فى الآخر تعمل فىَّ كدة؟!" وأرجع وأقول: "له حكمة فى ملكوته"، يمكن مدّيك الصحة يا "محمد"، علشان تخدم الولية الغلبانة اللَّى عاشت معك العمر الطويل، من غير ما تشتكى منَّك ولا مرّة، بس ايه الحكمة أن يشلّ الغلبانة في آخر أيامها".

أقول لنفسى: "استحمل يا "محمد"، كمَّل يا راجل، أنت ملكش حاجة فى نفسك، صاحب الروح عايزك يشيَّلك شوية، هتكلّ"، يقوم جسمى يتفرد، وآخذها فى حضنى وهى تعيط وأقول لها: "يا ولية يا عبيطة، أنا تعبتك كتير أيام الشباب، وربنا عايز يخلَّينى أعوض تعبك، أنتِ جَمِيلك كثير يا أمَّ العيال".

أقول لنفسى: "أنا ملكك يا ربَّ، عمرك ما زعلت منَّى، اعمل فينا زى ما أنت عايز"، أخذ نفس واستكمل: "تعبت دماغك يا أستاذ!! بس والنّبى تخلَّى بالك من ابنى، أنا نفسى أشوفه بوظيفة حكومية، يأخذ مرتبًا يستره، ما تتسانيش يا أستاذ".

ودّعنى بقُبلة على خدّى، وبحضنٍ أذهلنى، كان كنور القمر الذى هبط من السَّماء ليحمينا.

"الوداع"

لماذا زارني "هاني"، وأصرّ على أن يقول إنَّ "الله فتح عليه، وأصبح يملك الآن شركة للنت؟" هل كان يريد أن يقول لي إنَّه الآن أفضل مني؟ أم يحاول الاعتذار عن الإساءة التي ارتكبها في حقي؟ وهل يريد أن يغفر لنفسه؟

كان ودودًا وهو يحكى عن الرضا الربّانى، رغم كلّ ما قام به أكّد على حبَّه لصديقاى "وليد" و"حسنى"، وكرهه لخصماى "سيد" و"يحيى"، أكّد على براءتى من الاتهامات التى وجّهها لى بسرقتى صديقته، سعيدًا باستمرار علاقتنا، قال إنَّ ربه قَبِل توبته، وإنّه يقوم بعمله الآن بضميرٍ، ولا يحقد على أصدقائه؛ لأنهم جميعًا أفضالهم عليه، ولأنّه صاحب صاحبه.

سعد بلقائي ، وقال: "إنّه يسكن بمدينة "الرّحاب" المُحاطة بالزهور، وإنَّ سيارته المركونة بجوار الكبابجى لونها أبيض، وإنّها "متسوبيشى" حديثة، ولا تعمل إلا بقراءة الفاتحة، والرضا والإيمان بالله! وإنّ والده دائمًا يكرر: "إنَّ الإيمان بالقلب".

نسى "هانى" إساءتى له يوم تشاجرنا على مرافقة "نجاة" التى عملت بالسنترال، وأشعّت على الجميع بهجتها، قابلتنى وادّعت بأنّنى حبيبها الوحيد، يوم شاهدها معى فى الكازينو المطلّ على شاطئ النيل سلّم علينا، وقال فى وجهى: "لم أتصوّر أبدًا أن تخوننى؟!" لم أفهم شيئًا وطلبت "نجاة" الرحيل، قلت له: "إيه الحكاية؟!" قال: "إنَّ "نجاة" هي حبيبته وقد اتفق معها على الزواج، وإنّنى بغدرى اخونه ببساطة "، قلت له: "إنّها تقابل الجميع"، حكيت له علاقاتها مع معظم أبناء الحيّ، أكّدت له بأنّنى شاهدتها بشقة "حسين" المنجّد مع ابنه، وهم يمارسون الجنس.

صفعنى على وجهى، وقال: "أنت كذاب"، هرب من أمامى، حاولت مراتٍ كثيرة تُوضَّيح موقفى وعدم علمى بما بينهم، لكنّ الحياة أخذت كُلاً منا فى طرقٍ مختلفة، رغم أنَّ "نجاة" تزوّجت وأنجبت أطفالاً، وطُلّقت مرتين إلا أنه كلّما كان يشاهدنى صدفة فى الشارع يبصق على الأرض!!

أكَّد بأنه صديقى الحميم، وأنّه سعيد بزيارتى، لكنى لا أعرف لماذا أتى لمكتبى اليوم؟ هل يرغب فى توطيد صداقتنا؟ أم الاعتذار؟

"الاحتياج"

الضعف الإنسانى مطلوب كى نلتحم بالآخرين، الضعف الإنسانى مطلوب لنكتمل، لا يوجد إنسان يستطيع أن يحيا بمفرده، كلّ الضَّحايا يحتاجون، الأقوياء فقط راضون بحياتهم، كلّ الضحايا آملون، ويضعون ثقتهم بقلوبهم رغم احتياجهم للنور؟ لماذا يخاف الأقوياء الغد؟ لأنّهم يعرفونك، فأنت روح الإنسان التى لن يقف أمامها مارد، الإنسان الذى لا يحتاج لأحد، ويحصل على فيضٍ من الحبّ والحنان والأمل دون مقابل.

"لماذا تريد أن تحرمهم الأمان؟"

لم يمتلك أرضًا مثل باقى الفلاّحين، كان عرقه سلاحه المشعّ ببهجةٍ انتشرت كلّ صباحٍ بالحارة، غذَّت الجميعُ بالنور، كان شعاره الأمل، ومع ذلك ظلّ الغادرون يحُومون حول بيته ليحرموه الحبّ، كنّا نقول لأنفسنا حين نشاهد الجنود تسحبه وتحبسه بالسنين: "ماذا يملك العمّ "سيّد" سِوى ضحكته، هل لا يستطيع الغادرون أن يتحمَّلوها؟" لم يكن يرغب من حُطام الدنيا سِوى هذا النُّور، كان يقول بسخرية: "الحياة شوية ضحك، وستر ورضا، إذا نلت الرَّضا طلعت للسماء، ولن يستطيع أحد أن يطولك".

كانت امرأته شغوفة بملء المنزل بالأجهزة، التى تتسلمها من التجار الذين يوقعونها على إيصالات وأوراق لا تعرف مضمونها، أيامًا كثيرة يقف العسكر حول منزلهم، ويأخذوهما لقسم الشرطة؛ لأنهما وضعوا بمنزلهم ثلاّجة لتبريد المياه، كان يقول بعد خروجهم من الحجز : "الولية المجنونة كلّ يوم تسحبنى للشرطة، حلفت عليها بالطلاق ما أنا شارب تاني ميه ساقعة!!"

إذا أحضر القهوجى كوب مياهٍ مُثلَّجة يقوم برميه على الأرض، ويطلب منه إحضار كوب مياه من الحنفية، كان رُوَّاد المقهى يقولون: "مياه الحنفية سخنة ومُلوَّثة"، فيرد: "جوفى مليان برد، ويحتاج للدفء!"

عَافَر فى الحياة حتى لا يحتاج إلى أحد، لا يدخل البيت إلاّ للنوم آخر الليل؛ كى يتدفَّأ بضحكات الآخرين على النواصى، لم ينجب ولد او بنت، كان الجميع أهله، يشتكون له، فيطبطب ويُهوِّن البلاوى عليهم، ويستعجب حال الدنيا.

فى اليوم الذى جاء فيه العسكر وأحاطوا منزله، رفض ركوب البوكس، وقال لزوجته: "لن تركبى معهم"، دخل الضابط وقال بغلّ: "بتقاوم السّلطات يا ابن الشرموطة؟!" أخذ طبنجته فى

ذهول الحاضرين، وأطلق الرصاص عليهم ليهربوا، لكنَّ الغادرين عادوا لمنزله فى نفس اللّيلة، وأحاطوا بالمنزل، وأخرجوه وزوجته جُثثًا هامدة.

جاء التجار للمنزل بعد مغادرة البوليس، وفتحوا الباب، وأخذوا الثلاّجة، والبوتاجاز، والتسجيل، والسّجادة، وتركوا المنزل بدون أثاث.

مازالت روحه تجرى وسطنا تنادينا؛ كى نتحرّر من الاحتياج، وننال الرضا.

لا يستطيع أحد أن يمرّ الآن من أمام منزله المفتوح إلاّ وينحنى تحيةً لروحه التى اغتالها العسكر ، وتواطؤ الجميع بالصمت.

"نوم الظالم عبادة"

حين نام على السرير فى أيامه الأخيرة، لم يتمكّن من التحكّم فى بوله، قال وأنا أطلب منه أن يقوم ليأكل بعض الطعام ويدخل الحمّام: "اتركنى يا ابنى، الله يخليك"، شاهد إصرارى بأنّنى لن أعود لحجرتى إلاّ إذا انصاع لصوتى، فقال: "مين هيقدر يستحملك؟!"

نظر إلىَّ بشفقة، ومات.

هذا الرجل الذى عرفته كأبى أقوى من الريح، أعطته الحياة كلّ ما يريد ويستحقّ، ملأته بالنور لدرجة أنّنى لم أشاهده فى حياتى نائمًا، دائمًا يقظًا، يدخل البيت بعد عودته من عمله الصّباحى يأكل ويشرب، ويناكف أمّى، ثم يعود إلى عمله الثانى ويعود بعد انتصاف الليل، يخرج على المقهى حتى الفجر، ثمّ يعود للمنزل يستحمّ؛ ليغسل تعب النهار، ثم يقوم ليذهب إلى عمله الأوّل.

ما بين أعماله المتنوّعة والمقهى قضى حياته، سبعون عامًا مرّوا سريعًا، ثم نام على السرير عدة أيام، تركنا بعد فقده التحكُّم فى كلّ شىء، وظلّ يتبول على نفسه، ويُحدّث الهواء، ويتجاهل أصواتنا، ويغنّى، ويبكى، خمسة أيامٍ متّصلة، تطهَّر تمامًا من كلّ شىء، تحوَّل وجهه الخشن لملاكٍ قبل أن يغيب فى الأيامِ الأخيرة عن الوعى، طلب منّا ألاّ يزوره أحد من أصدقائه أو روّاد المقهى، وكلّما سأل عليه أحد، ردّت أمى: "بعافية شوية"، خمسة أيام كنتُ أجلس فيهم إلى جواره؛ لأُطعمه وأسهر على راحته.

فى اليوم الأخير كان يقظًا، طلب منِّى الذهاب لحجرتى؛ لأنَّ صحّته أصبحت على أحسن حال، قلت: "لن أنام قبل أن تغفل عيناك"، رد بحنية : "اقترب منِّى يابن الكلب"، نظر فى عينىَّ، وقال: "الدنيا متستهلش كلّ التعب ده.. خلِّى بالك من أمك وأخواتك"، سبقتنى دموعى، وقلت: "أنت كويس يابا، وهتبقى زىَّ الجمل"، كان بوله الذى يملأ السرير قد اختفى، تحوَّلت حجرته الضّيقة إلى مكانٍ لرحيق الورد.

قال: "اتركنى فسوف أموت اللّيلة، لا تجعل أحدًا يصرخ أو يبكى، فقد عشتها كما رغبت، لم أنحنِ لأحد، لم أترك حقًّا يضيع، لا تطمع فى حق أخواتك، اجعل نفسك دائمًا فى كوم المظلومين، حتى لا يقول عليك الناس حين يشاهدونك ميتًا "نوم الظالم عبادة"، لا تجعل دقيقةً من عمرك تضيع إلاَّ فى البناء والحبّ " ونطق الشهادة مبتسمًا، وغادرنى.

"**الكره**"

سألتنى وأنا خارج من الشقة: "من يروى زرعك.. أم ستترك أرضك بورًا؟" قلت لها فى صمت: "لن أعطيكم مرةً ثانية.. أليست هذه رغبتكم كلّما أعطيت لأحدٍ شيئًا، استقبلت الإهانة والذل، أبوة هسيب الأرض بايرة، والابن تائه، والزوجة حزينة، والأم مكلولة، والأخ ضائع، لم أعد أتحمَّل، سأرفض العمل".

نزلت درجات السُلَّم وأنا متيقن من قرارى، لن تُعيدنى ضغوطهم مرة ثانية لأنتج مرة أخرى نفس النهايات ، سأطلق روحى تعيش كما ترغب، لن أسمح لأحدٍ بالتحكُّم فى مصيرى، سأعيش بحرية، وأترك الجميع يأمل الحياة التى يتمناها.

ذهبت لعملى لأقدّم استقالتى، المدير كان فى استقبالى، ويرغب فى تهديدى، قلت: "أنت وسخ!" كان صوتى قويًا وسط الصالة التى جمعت العاملين، قال: "أنت عارف بتقول إيه؟!" قلت: "يا واطى، طُظ فيك.. لا أحتاج عملك!!"

وجوه العاملين كانت مُغتبطة، فقال: "ستدفع الثمن"، أخرجت أصواتًا من فمى يَنْدى لها الجبين، وأشرت له بيدىَّ إشاراتٍ قبيحة، وقلت: "يمكننى قتلك، لا تفتح فمك مرةً ثانية".

خرجت للشارع إلى منزل إخوتى فى القرية القريبة من المدينة، كانت الساعة الثالثة ظهرًا ، حضر الجميع لتوزيع الميراث، قلت: "أنتم سفلة، ليس بيننا روابط أو ماضٍ، لا أحتاج حقى يا أوساخ، اشبعوا به"، نظروا إلىَّ بغيظٍ، وقالوا: "ليس لك حق لدينا"، قلت: "لست أخيكم، أمكّم وجدتنى أمام باب الجامع، أبوكم كتبنى على بطاقته على سبيل الرحمة، لا أحتاج عطفكم، اشبعوا بتركة الكره التى تركها لكم".

عُدتُ مرةً أخرى للمدينة أبحث عما يربطنى بهذا العالم لأقطعه، كلّما قابلت شخصًا يعرفنى تجاهلته، لم أردّ على سلامه، كانت قدمى تتجه إلى شىءٍ أُحسّ به؛ لكنَّى لا أعرف كنهه، كنت واثقًا بأنَّ قدمى سوف تُوصلنى للطريق، قلت لنفسى: "لا يربطنى بهم شىء".

ملأت عساكر البوليس الميادين، السيارات المُجنزرة عبثت بالشوارع؛ لتدلّل على الكره، كنت وحدى الذى أعلم النهاية، الحاضر لا يمكنه أبدًا التعبير عنّا، قلت لنفسى: "لم يعد هناك حاضر أو ماضٍ، أنت الآن جاهزٌ للطريق".

جاءنى جدّى العجوز، وأنا نائم بجوار حائط الجامع، وقال: "لماذا فعلت كل ذلك؟ ألم يكن يُبهجك منظر الزرع وهو يملأ الحقول؟ ألم تتمنَّ امتلاء الأشجار بعد الخريف بالأوراق، وتذوق ثمار التوت الطيبة؟ ألم تحلُم ببلوغ ابنك المجد، بعد أن من عليك الله بالرضا والستر؟"

اختفى قبل ردى عليه، وأيقظنى المارة من وسط الشارع حتى تمرّ السيارات، قلت لنفسى: "أنا لقيط وجاهز للموت.

الصراخ يملأ الشوارع الجانبية، لم أكن أفهم ما يدور، أخذت روحى تبحث عن مصيرى بينهم، شاهدت المتعاركين يمسكون السّواطير والسَّنج، ووجوههم المشقوقة من أجل الموت تبحث عنَّى، قلت لأول عابر: "أعطنى سكينتك"، لم يتردّد، أخذتها منه، قاتلت كل من قابلنى من الفريقين حتى مزّقوا جسمى برصاصهم.

سعادتى وبهجتى ليس لها حدود ؛ لأننى استطعت توحيد جهودهم، اتفقوا دون أن يدروا على الخلاص منَّى، ليبدأوا عصرًا جديدًا للاقتتال حول الرزق والحبّ، كانوا مبتهجين وهم يُقطِّعون جسدى، وأنا مُنبهر من غلَّهم وانتظارهم قدوم شخصٍ مثلى فقد ماضيه وحاضره ليوُحَّدهم!

"الغريب"

كانت أمَّى تجلس تحت جذع شجرة وسط البيت بجوار جدَّتى، مرت المياه بجوارهما منزلقة من حوض ماكينة الرى لأراضٍ اختفت بفعل البيوت التى ملأت الدنيا، وجلست أخواتى البنات إلى جوارهما، وفُوجئت به يجلس على حوض الماكينة بجوارنا، نهرنى وسبّنى، واتهمنى بالكسل، فقلت: "مبقتش قادر أشتغل، نسيت مكان الحقل".

جدَّتى وأمَّى يبكيان، لم يتحدثا، فقط نظرا بحسرةٍ تجاهى، فقلت: "أريد أخذ حقلى لأزرعه" ، رد بقهره: "تعال خذلك فدان أرضٍ"، قلت: "هل حقَّى فدان؟ لقد ورثت عن أبى الفدادين الكثيرة!!" ضحك بهستريا ولم يتحدّث، لم ألمح إلاّ عينيه المندهشة منَّى، كان بهما بريقٌ مُرعب غريب، لكنَّه قال : "الأرض اتبنت، اهدم البيوت، وعيد الزرع تانى!!"

قالت أختى: "وماله نهدم ، المهم تأخذ حقك يا أخويا"، قلت: "اوعَ تفتكر أنَّى نسيت أرض أبوى اللى كان بيزرعها بالبطاطا!!" تركتهم وسرت فى اتجاهٍ آخر، رغم أنَّ الغريب ظلَّ جالسًا على حوض الماكينة التى تضخّ المياه، سارت أخواتى البنات ورائى، دخلنا حومة صغيرة بها عدّة بيُوت وهو يشمت فينا، بينما ظلَّت ستّى وأمَّى على حالهما تنظران إلينا بحسرة.

صرخت العصافير حولنا، وقالت: "الروح البريئة لا تنشغل بالجبن"، وقتها أحسست بأننى مسالم، لكنَّى قلت فى خوفٍ لجدتى: "ماذا يحتاج منَّى؟" قالت: "أنت من تبهر العقول وتفهم السر؛ لتنعش البشر، وتقود السفن الغارقة لتنجو، وتطول شراعها السماء، لا تخف منه"، قالت أمى وأنا أودَّعها لأدخل وراءه : "إذا جاءك صديق ليطلب المساعدة لا تتأخر عن إغاثته"، قالت جدَّتى : "ساعدوه يا ولاد"، ردّت أمَّى: "ساعدوه حتى لا يأخذه الغريب".

فى الصّباح حاولت تذكر وجهه، لكنى لم أتعرَّف عليه ، كانت عيناه تنطق بالشرر، حاولت تذكّر أهلى وأصدقائى؛ لأتعرّف على وجهه الذى ظلّ طوال الليل يُهدّدنى ويشمت فينا، لكنَّنى أبدًا لم أعرف هذه القسوة التى تخرج من عيون البشر.

خرجت من المنزل هائمًا على وجهى لتفسير الحلم، ومعرفة وجه الغريب الذى جعل الأموات يتحسّرون على ما آل إليه حالنا، حاولت تذكّر المكان الذى جمعنا أنا وأخواتى البنات، والحارة الضيقة التى اختفينا فيها وهو ينظر لنا بغلّ.

توقّف الباص المملوء بالركاب، نزلت من الباب الأمامى، تحسّست جيب البنطلون الخلفى، اكتشفت أنَّ محفظتى اختفت، قلت لنفسى: "سرقها الغريب!" أحسست بسعادةٍ مفاجئة، وقلت: "غارت فى داهية؛ ولن أبحث عنها ".

تحسّست جيب الجاكت فوجدت المحفظة، فتحتها، كانت مملوءة بورقات البنكنوت ذات العشرين جنيهًا، قلت: "الحمد لله راح الشر، ومرتب الشهر مازال موجودًا".

"الميت"

سرت على أقدامى مخترقًا شوارع البلدة، مرّرت بجلسات الفلاّحين المجتمعين على رأس الحقول. أذهلنى سماع حكاياتهم، وعدم الإحساس بصوت أقدامى، اعتقدت أنّهم من بلدةٍ مُجاورة حين تجاهلوا سلامى رغم أنَّى أعرفهم، لكنَّهم غرباء عن فلاّحي قريتنا الذين كانوا يجرون لاستقبالى، تجاهلت انشغالهم عنَّى، وسِرت على الطريق الزراعى الذى يتوسّط الأحواض دون أن يحسّ أحد بروحى.

فجأة وصلت لحقلنا المزروع بالأسمنت والبيُوت، ضريح "سيدى زنوب" على أول الحقل مُحاطًا بأشجاره العالية؛ ليمنع حرارة الشمس وبرد الشتاء، كان الشيخ مُلتحفًا بقماشٍ أزرق وأخضر، وتقبع روحه داخل قُبَّة الضريح الضيقة ناشرة البراح.

البيُوت الجديدة التى بنيناها تُحيطها المزروعات، شقَّ شارعها الرئيسى جسم الأرض فقسمها نصفين، كان واضح الملامح رغم أنَّه يمتلئ بالأتربة والغبار أمام منازلنا الجديدة.

جلست مع أخواتى أمام الضريح نشرب الشاى، لبس أخواتى البنات ملابس سوداء، وابتهجن بالحقل المتحول لبيُوت، فرح أبناؤهنَّ حولنّا وهم يلعبون بالكرة فى المساحة الواسعة أمام الضريح.

انتشر سواد غريب ممتد من شارع البحر البعيد قاسمًا الأراضى الزراعية ليحيط بأرضنا، قلت لهنَّ ونحن نجلس مفتخرين بالبيُوت التى دقفنها على أحواض القمح والبرسيم: "ما هذا السَّواد؟" رددن بغرابة: "أى سواد!!" قمت مفزوعًا من وسطهنَّ عائدًا لبلدتنا البعيدة من نفس الطّريق، مرّرت على أسواقٍ كثيرة وفلاّحين أغراب يلبسون البفتة البيضاء فوق أكتافهم، ويفترشون الحصر أمام الحقول، ويلعبون الطاولة، ويشربون الشاى على بوتاجازٍ صغير، ويتحدثون بلغةٍ أخرى عن سعر متر الأرض ونسبة الوسطاء، لم أسمع أحدًا منهم يتحدث عن ماشيته أو حقله!

لم يردّ أحد منهم سلامى، رغم أنَّى كنتُ أرفع صوتى ليسمعونى، لكنَّ أحدًا لم يرنى أو يحس بوجودي.

حين وصلت لشقّتى التى أسكن بّها بالبلدة وجدت زوجتى تنادى بغرابة على أولادى ليروا وجه أبيهم الذى انطفأ، سألونى: "مالك يابا؟" لم أرد، دخلت لسريرى ونمت، لم أدرِ بنفسى إلا عند أذان الفجر، ارتديت ملابسى، واتجهت للحقل الذى يعيش فيه أخواتى؛ لأتأكّد من أنَّ مشاهد الليلة الماضية كانت أحلامًا.

"البداية"

يستبدل ببراعة غريبة الأصدقاء والأهل والأحبة بعد تغير ملامحهم فى مخيلته، يتعامل معهم كما يتراءى له بأحلامه، يتغيرون حسب رغبته، ومن لا يستطيع التحول كما يحب، يبتعد عنه وينساه، قال لها يوم سألته عن صديقه الغالى: "من هذا "، قالت: "أنسيته؟" قال: "لا أتذكر"، أغلقت الموضوع لأنها تعرف ما يدور بداخله.

كيف استبدل حبيبته بوجه غير موجود، حين أحست بذلك قالت: "مستكثر علىَّ الأحلام يا واطى"، تمكن من المراوغة طوال هذه السنين كى تجرى وراءه، لأنها تراه حبيبها الذى يعشقها دون مقابل، فجأة يطلب منها ببراعة أن تخرج من حياته، كيف عليها أن تقبل هذه المعادلة التى عجنها ورتبها فى أحلامه ؟!

الشىء المثير فى تلك العلاقة أن الطرفين كانا يعلمان ويرتبان للفراق، يحاول خداعها بأنها ليست الملهمة، كى تستبدل ببراعة ملابسه الخشنة، أهَّلت نفسها لهذا اليوم فأصرت على هدم معبده، المشكلة أن عليه أن يبدأ فى التراجع، لن تتألم لأنها تعرفه، لن تحزن لأنها تفهمه، المشكلة بالنسبة له كيف يبدأ فى الانسحاب.

إنّها اللعبة التى أدمنها ليتخلص منهم واحدًا تلو الآخر، لإبداع عالم آخر يعيش فيه مع بشر اخرين، حين تركته ولم تندهش من صمته، تذكر مواقفها المهينة، حبكها فى أحلامه، رغم أنها قدمت كل الحب لقلبه، لكن خياله الذى يرغب فى التخلص منها لينعم بوحدته، يبدع فى استبدال البشر، لذا لم تندهش حين سالها بوضوح: "من أنتي؟"

حين عاد من اللقاء الأخير كان مندهشًا لأن ذاكرته رفضت أن تفعصها، قال لنفسه: "غدًا سأنساها!" الشىء العجيب أنها حين سمعت نبرة صوته الجديدة فأيقنت بغدره، تركته غير حزينة على اكتشاف ملامحه الجديدة، فى هذا الوقت حلقت فوقها العصافير وأطلقت المآذن والكنائس تغريدها لتعلن حياتها الجديدة.. وكان هذا اليوم مبهرًا ومبهجًا دون شره.

"الهجر"

استطاعت أن تمرَّ من كلّ هذه العلاقات، وتنال فى النهاية الرَّضا والسُّمو.

اختارت طريقها للموت، فخافها الجميع، رفضت سطوة الرجال، واستطاعت بقوتها أن تمتلك خيوط المشاعر، دون أن يتمكَّن أحدٌ من الاستحواذ على نبض قلبها.

ماذا كانت تُخفيه عند كلَّ رجلٍ تعُاشره، لتقول فى نهاية العلاقة بجبروت: "ارحل لا أحتاجك"، ما هو الذى كانت تحتاجه منَّى خلال علاقتنا، لتستغنى عنى فى لحظةٍ دون أن تندهش، بينما تتركنى بطريق الوحدة مُنهارًا.

قالت كلمتها الأخيرة، وذهبت لصديقها، تأبَّطت يده أمامى دون أن يطرف لها رمش، أحسّست وقتها بأنّها تمتطينى لتصل إليه، طوال هذه الفترة لم تحبنى، كانت تخدعنى وأنا متوهَّم بعشقها، فأسير وراء مشاعرها التى تناديني دون حسابٍ.

كانت بارعة طوال عشر سنين فى امتطائى، بماذا كانت تحسّ وهى تعاشرنى، لتدهس بكرامتى التراب، لم تؤمن بى أبدًا كرجلٍ يُمكنه حماية ظهرها من غدر الدنيا، كانت تعلم أنّنى سأتركها، فاختارت هى اليوم؛ لتنتصر على ضعفى، وتهزمنى أمام نفسى.

بعد مغادرتى الشارع الذى تقابلنا فيه قلت لنفسى: "علَّمتها التجارب بأنّنى سأتخلَّى عنها عند أقرب ناصية، بعد الانتهاء من مهمتها".

دائمًا جاهزة وعلى استعدادٍ لدفع ثمن غدرى، فى كلّ مرة أتركها كانت تقول حين تعود: "انتظرت أن تتّصل أو تسأل، لكنّك الغادر لا يمكن أن تفتح قلبك لأحد"، تشرَّبت من غدرى، ولم تتوقّع وفائي أبدًا، اعتقدت أنّها نسيت الطعنات والجروح التى تلقّتها خلال علاقتنا الطويلة، ومع ذلك لم تقطع علاقتها بأصدقائها، لتتقى شرى الذى سيظهر يومًا ما، لكنَّها سبقتنى الفاجرة.

حين شاهدتها منذ شهرين وهى تحتضنه بالشارع دون خشيةٍ منى أو حياء، قلت: "كيف تجرؤين على احتضانه وتقبيله أمامى؟" قالت : "ليس لك علىَّ حكمٌ "، ومع ذلك عاودت الاتصال بى بعد شهرٍ؛ لأنها تعلم أنّنى لازلتُ فى احتياجٍ لها، كيف استمرّت تعاشرنى عشر سنوات متجاوزة كل هذا الغدر، وتعاود الاتصال غير عابئة بمصيرها؟! قلت وهى تُحدِّث صديقها بالتليفون، وتطلب منه ان يقبل دعوتها بالسّفر معها للمدينة الساحلية: "إنتِ اتجننتى، أنا بحبَّك، إزاى هتروحى معاه"، قالت: "يا خايب أنت صدقت، أنا بشوفك هتعمل إيه!!"

أصرّت على إنهاء علاقتنا فى وجود حبيبها، لا أدرى هل علمت بعلاقتى بصديقتها التى تعرّفت عليها بأحد لقاءاتنا المشتركة، طلبت "هند" مقابلتى، واستمرّت علاقتنا سنة دون أن تعرف، فى هذا اليوم تحدّثت كثيرًا عن "هند"، قالت كلّ شىء عن حياتها، وزواجها الفاشل، وعلاقتهما الوطيدة منذ المدرسة.

قلت لنفسى: "لا تحزن، لا تستحقُّ امرأة فى الدنيا أن تحزن عليها"، تحسَّرت على نفسى، لخسارتي علاقتى بزوجتى وأهلى بسببها، اليوم تأتى وتصرخ بوجهى بوسط الشارع قائلةً : " دورك انتهى من حياتى!"

أحضر القهوجى الشاى، وسألنى: "هتشرب إيه؟!" قلت: "انتظر شوية"، عدت لأفعصها بذاكراتى، كانت تُنكر جهودى وحبِّى، وتُذكِّرنى بأصدقائها وزوجها السابق، وحنّيته وحبه الكبير، وسردت بالتفصيل ما يقدِّمه لها الرجال الآخرون من حب.

قلت لنفسى: "لا تستحقُّ حزنك"، اتصلت بـ ، وطلبت مقابلتها، استجابت وطلبت منى زيارتها فى شقة طليقها الأول.

بعد انتهائى من كل مشاهد الخيانة التى تمنّيت "هند" أن تشاهدها جلست وحيدًا على كنبة الأنتريه، وقالت: "علاقتك انتهت بـ عزة ؟!" لم أرد، قالت: "ولا يهمّك، هى لا تستحقُّ حزنك"، أحسّست بكرهٍ غير عادى يخرج من صوتها، فقرّرت الرحيل.

لم تفلح محاولتها لأنتظر وأتعشّى معها، قالت: "بَتْ معى النهاردة، وأنا هنسَّيك غدرها الفاجرة"، تدحرجت قدماى على السلّم، وأنا أقول لنفسى: "مازلت تحتفظ بحبّها رغم نُكرانها!"

المشهد الذى تمنّته ولم أقم به هو الوثوق بى كرجلٍ يحميها، المشهد الذى يجعلها تعود راكعةً على قدميها كى أطلبها للزّواج، وقتها يمكننى استحقاق أنوثتها، لكن هذا المشهد الذى ترغبه هو المشهد الأخير، فهل أستطيع أن أخطو ناحيته؟

تساءلت فى حسرة: "كيف سحلتنى، وأسقطت المتبقَّى من رجولتى؟ اختبرتنى وفشلت، فاستحقَّ حبيبها الجديد حضنها الدافئ؟!"

قلت لنفسى: "الخطأ قد يُعرّضك للقتل، هدم الماضى ليس شيئًا سهلاً، خاصة إذا كنت ترغب فى بناء مكانه مشاعر جديدة، لكن "عزة" كانت تفعل ذلك، دون أن تحسّ بوخز الضمير".

"المسؤولية"

قلت لها مندهشًا وهى تركب الميكروباص: "معقول هتفضلى مركّزة على طول"، لم تنظر إلى وجهى، وقالت ضاحكة: "دى حاجة بسيطة"، حين غادرتنى تذكّرت ردودها القوية فى كلّ مشكلةٍ عرضتها عليها، هناك شيء ما بداخلها يدفعها للإجابة الصحيحة.

لم تخشَ أبدًا قول ما يدور بداخلها، حين خدع صديقها شركاءه فى العمل، وادعى كذبًا بأنَّ الشركة خسرت كلّ شىء؛ ليستولى وحده على المكسب، قالت: "أنت منافق، هم شركاؤك فى الثروة"، وتركته دون وداع.

حاول أن يُثنيها عن موقفها، أن يُبين الحب الذى يظلّل حياته بسبب وجودها، قالت: "لم يعد لحياتى معنىً بجحيمك"، سارت بالطرقات والمنازل والتجمّعات، تُردِّد دون خوف ما يأتى على بالها، لم تترك فى روحها شائبة لتخفيها عن الجميع، أُذهلت أرواحهم ببراءتها وبكارتها.

كان يسأل نفسه: "أهى دائمًا جاهزة للرد؟! ما سر تكوينها الذى جعلها بهذه القوة؟! حين تتحدث يصمت الجميع، كأنّ ما تقوله هو الحقيقة التى نرغب فى إخفائها".

من أزال جدران الخوف داخلها، وابتلانى بالتردّد؟ كلّما سألنى أحد كنت أُردّد: "خلّينا نشوف"، لم أقل مرة واحدة الإجابة الواضحة الصحيحة، دون أن أُعيد على نفسى ما يمكن أن تؤدِّى إليه كلّ الإجابات المختلفة، لأختار من بينها الأقل ضررًا، حتى لا أتحمَّل أىّ التزاماتٍ أو مسئولية.

كنت أحتاج قبل اتخاذ القرّار إعادة الحسابات، لأتلافى كلّ الآثار، كنتُ أُرتّب لأىّ قرار حتى ولو كان نقل أقدامى من مكانها فى الشارع ، بحيث لا يكون لدى أحدٍ تساؤل عن مغزى سيرى، أجابتها جاهزة للكل ليضعوها بعقولهم دون مناقشة، لم تتوانَ ولو لحظة واحدة فى أن تقول دفعةً واحدة دون مقدمات الحقيقة.

حينما ابتعد الميكروباص، قلت لنفسى: "ياه وعايشة إزاى دى؟!!" لم أكن أعرف أنَّ السؤال يجب أن يتوجّه لمن يضع اعتبارًا لكلَّ شىء، الطقس، الألوان، الروح، أىُّ قوةٍ فى الأرض جعلتنى أتحمّل نفسى كلَّ هذه السنين؟!!

ما الذى كان بداخلها ليجعلها تحسب الحسبة فى ثانية، وتقول رأيها الصّحيح دائمًا؟

"الحبّ"

شيءٌ جميل أن يكون هناك شخص فى الحياة بعيدًا عنك، يتذكّر طيفك، تحسّ أنَّه ملكك، يأتمر بآرائك، يذوب عشقًا بسماع صوتك، يتمنَّى أن تطلب منه أىّ شيء، ليلبىَّ رغباتك.

شيء مبهر أن تعرف أنَّ هذا الشخص سوف يأتى إليك فى الحال إذا تمنّيت فقط أن تراه، شيء مُذهِل أن يُوجد بيننا هؤلاء الأشخاص الذين يتمنَّون أن تطلب لبن العصفور ليحضروه لك.

شيء رائع أن تعلم أنَّ القلب الذى دقّ منذ دقائق كان قلبى، النبض الذى يبلّغك بامتنانٍ أنه الشخص الذى يرعاك، ويسهر على راحتك، ويلازم طيفك، وتنظر فى وجهه، وتكتشف أنّه أجمل الأشخاص، المخلص طوال العمر لتحيا بأمان.

شيء مفزع أن تعلم أنّه الآن يتعذّب بسبب قسوتك، لأنّك رفضت رى عطشه بكلمةٍ رقيقة، كان يحتاج فقط أن تنظر لعينيه، وتشكره على يقظته وسهره على راحتك، لكنّك رمقته بغضبٍ وغباء، وقلت: "ليس عندى وقت كافٍ للنظر فى عينيك.. لا وقت عندى لحنية فاضية"، لم يكن يطمع فى أكثر من لمسةٍ يديك؛ ليظلّ مُمتنًا بالقرب منك، لكنّك بجبروتٍ معتاد قلت فى غدر: "سوف أرحل للأبد، وعليك أن تستكمل وحدك".

شيءٌ مؤسف أن يوجد فى الدنيا بشرٌ مثلك يرفضون مجرد الإحساس بالربيع خوفًا من طمع الفصول، كأنَّ الامتنان ذنب لا يُغتفر، كأنَّ الإعلان عن وجود الملاك العاشق بجوارك جريمة، كأنَّ النوم فى حضنٍ دافئ يشعر بك هو الفُجر الممنوع، فتقول لحبيبتك فى جبروتٍ وقسوة،: "اذهبى وحدك لن أستكمل السّير معكى".

شــيء مزعج أن ترفض الحبّ بدعوى الأمـان، وتنـتفض من آدميتك ليستمتع الأمير، بعد وضعه القيود بقلبك لتعتقد بأنّك المخلص لطُرقه المُبْدعة فى القهر، فترفض من يحبّونك بدعوى المصلحة والثمن، وتخسر نفسك فى النهاية، شـيء المفجع أن يكون فى الحياة بشر مثلك يرفضون رى العطاشى، هل يمكن أن نتخيّل أنَّ قرينك الذى يتمنَّى لك البهجة والأمان والحب، مازال يحلم بأن تنادى عليه كى يعود إلى مكانه بقلبك؟! فهل تنادى عليه، وتفجع ذاكرة المجرم الذى يفتخر بأنّه قهر إحساسك؟!! شيء مزعج أن يأتى يومٌ وتحرمك الدنيا من قرينك.

يحتاج قرينك إلى قلبك ليتدفّأ بروحك، اصرخ لتضع حدًا للمهزلة، اصرخ فلن تخسر إلاّ المبانى البالية التى ستتهدَّم على رؤوس الكلاب، اصرخ فشيء جميل أن تموت من أجل قرينك الذى ظلَّ يحبك حتى مات، اصرخ لتُحرّره فيكفى أنّه ضحَّى بحياته من أجلك، أصرخ لينهض، فقد نوديتُ باسمك.

"الواقع"

قال لنفسه وهو مذهول: "العالم البديع الذى كنتُ أعيش فيه مع "نشوى" يهرب منَّى"، لكن عقله لم يطاوعه، تذكّر سريعًا المدن والشّقق التى عاشا فيها كعاشقين، والأشخاص الذين عاشراهما هناك، وجيرانهما، والمقاهى التى جلسا عليها، والطرق الغريبة التى قطعاها معًا، والسيارات التى ركباها، وروائح الحبّ التى ظلّلت عليهما فى المدن.

كيف يمكن أن ينسى عمره دون تذكّر رائحة الزهور التى تحسّسها بروحه، مع ذلك يجلس اليوم وحيدًا، غير مُصدّق بأنّ كلّ تلك المدن قد غادرته ولن تعود، قام من على المقهى مُحاولاً استعادة روحها التى ملأت بها حجرات تلك البيوت التى عاشرها فيها، قال لنفسه مذهولاً: "هل يمكن فقد عشرين عامًا من ذاكرتى دون ألم؟!" ومع ذلك عاودته مداخل الشقق التى استأجرها؛ لينعم فيها بالعشق مع حبيبته، كيف يمكنه نسيان رائحة البنفسج التى كانت تُحيط بشقتهم بحى المثلث فى المدينة الجديدة، والتى كانت تُظلّل البلكونة فى أيام الصيف؟!

لماذا قالت بجرأة فى وجهه: "هذا هو اليوم الأخير؟!" سأل نفسه: "ماذا فعلت حتى تتركنى أُواجه مصيرى وحدى، بعد كلّ هذا العمر؟!" لكنَّ السّؤال الذى لم يفصح أبدًا لنفسه عنه أنّه ظلّ يخدعها طوال العمر الفائت، كانت تنتظر منه أن يقف على قدميه، ويواجه الأهل الذين غدروا بها، ويقول لهم بعد زيارتهم: "إنّها أجمل امرأة " ويطلب فى تودّدٍ منهم أن يقبلوه كزوجٍ لها.

كانت تعتقد أنّه سيقف فى النهاية على شاطئ البحر البعيد، مُعتزًا بها ويُعانقها أمام الجميع، لكنَّ الحقيقة أنَّه أنكر حبَّها، وقال كعادته: "انتظرينى غدًا".

الشىء المحزن أنّه لم يتذكَّر أنّ هذا الغد الذى استمر عشر سنوات لم يأتِ، قالت فى اليوم الأخير وهى تلعن غده ومستقبله: "لا أحتاجك، لم يعد بذاكرتى شىء تجاهك"، تركته دون أن ترمش عيناها، لتعلن النهاية.

عاد وحيدًا تلك الليلة، مُحاولاً استعادة الماضى الذى هرب، الشىء المُذهِل أنَّ البيوت التى اعتقد أنّه أقامها على حقول القمح والبرسيم؛ لتؤويه فى الأيام الأخيرة لم تعد بذاكرته، نسى حُلمه الغريب بسيره فى البلدة القديمة على الطريق الزّراعى، لم يتعرّف عليه أحد، حاول تذكُّر الحُلم المحزن؛ هرب ولم يعد، قام مذهولاً مُحاولاً تذكّر الضّريح الذى كان يقبع عند مدخل الطريق، والسّور الممتد من شارع البحر حتى أرضهم، لم يتذكّر شيئًا فتيقن بأنَّ ذاكرته تخونه، فجأة قال لنفسه: "أىُّ ضريحٍ؟ ومن "نشوى"؟!!"

"الشهادة"

استعادة التوازن المُرعب، تفجير التوازن المفقود، إعادة الحبّ ليصلح الدنيا بالجمال، ويتمكّن النّاس من إنتاج أرواحهم وحياتهم الجديدة.

اتَّصل بى مُمثل الأجهزة، ليهدّد بمقتلى فى حادث سيارة، لم أرد عليه، فقالت بحبًّ لتطمئننى: "الحرية ليس لها حدود، انطلق لتكسر كلّ القيود لترفرف عالية فى السّماء، وتنام فى حضنى، وتتأوّه ببكارتى، الحرية أمل المحرومين، جاءتك الفرصة فلا تتركها تمرّ دون أن تقتنصها، لا أعرف سبب تفجيرها لقلبى هذه المرة".

أكّدت لها بأنّنى لست خائفًا، لكنَّنى لم أعد أفهم ما يجرى حولى، ولماذا الإصرار على مُعاداتى من الأجهزة كلّما قمت بإبداع طريقٍ جديد لخلاصى، قالت بثقة: "إنَّ القوة التى فى الحياة لا يمكن أن يُضاهيها شىء، لا تهتم بتهديدهم، ولا تحرم نفسك المتعة، استمتع ولا تهتم بروائحهم، ابحث عن الحبّ الذى ينشره نورى، عاشرنى بدفء بعد غلق الباب وتلبية دعوتى حين أهمس فى أذنك.. أنا عايزاك ".

انتقل فى هدوء إلى جوار جسدها البض، تخلع نظارتى، وتقول فى صمتٍ وقوة: "أنت جميل أوى"، تأخذنى بقوة فى روحها، وتقول: "لا تخف.. أنا ملاكك الطائر".

كان نبع متصل من الحبّ يرقص بعينيها، وجدت نفسى أُدندن بأغانٍ لم يطربنا بها أحد: "يا نسمة الصّباحية، يا عايقة، شباك منور بالحياة، والطرحة واقعة على الأرض، حايشة التراب والقش، والحبّ مرئية"، قلت لنفسى: "مرحبًا بعودتكِ، من الأطلال والبلاد البعيدة"، لكنَّى لا أعرف الطريق ولا هؤلاء النّاس، لا أعرف شيئًا فى هذا العالم الجديد، قالت بزهو: "تعرف نفسك، لا تهتم بأحاديثهم أنت عدت فلا تخشَ احد".

تتحسّس وجهى وجسمى وظهرى، تُطهّر كلّ ما تلمسه أطراف أصابعها، تمسك قضيبى بين يديها، وتتحسَّس دفأه، تمسك يدى وتضعها على حلمات ثدييها ، تنفجر وأنفجر، تأخذ شفتىَّ فى فمها وتعضّهما ، تخلع بلوزتها، وجونلتها، يظهر قميصها القماش برائحة عرقه المملوءة حبًا، تخلعنى ملابسى، وتقول: "ادخل ولا تخف.. ادخل، أنت تحرّرت"، آخذها فى حضنى وهى اليمامة الطاهرة، أضع نهديها فى فمى، أشرب لأروى ظمئى، ينفجر فى روحى البراح.

"الليل"

الطريق الزراعى مرصوفًا ومُحاطًا بترعة كبيرة وهى تقود سيارتها الزرقاء بزهو تعودت عليه، حاولت أن أُقبِّل شفتيها، لكن السيارات المسرعة بجوارها أخافتنى.

كانت مسرعة بدرجة أرعبتنى، قلت: "هدى شوية"، لم ترد، استكملت وأنا أنظر للطريق الضيق المحاط بالمزارع من ناحية والترعة الكبيرة من الناحية الأخرى: "حاسبى.. إحنا هنموت"، لم ترد وانطلقت، فجأة أُغلق الطريق بأشجار ضخمة فاصطدمت سيارتها بشجرة كبيرة، وانحشرت بين الأشجار الكثيفة.

نزلنا من السيارة بصعوبة، أحاول لملمة المتبقَّى منا، وقفنا على قدمينا، أخذت يديها محاولاً الرجوع وسط الظلام، تضاءل الطريق أمامنا كأنه خيط رفيع، كان علينا أن نمشى عليه ونحاذر الوقوع فى مياه الترعة الكبيرة.

مررنا بسلام لنجد أنفسنا بجزيرة محاطة من كل اتجاه بالمياه، سألتنى: "ماذا سنفعل؟ كيف سنعود؟" جاءتنى فجأة مشاهد معاشرتها المتواصلة بالشقق المبهجة، تذكرت الشقة التى كانت كالقصر وسط المدينة وعشقنا فيها البراح دون أن يشم أحد الجيران روائحنا، قلت: "أتتذكرين شقة حى الأشراف التى عشنا فيها بمنزل الشيخ "بيومى"، واستمتعنا فيها بالحبِّ الروحانى الذى كان يفيض علينا؟ كانت الحارة الضيقة التى تتجمع فيها بيوت البلدة كالمزار السياحى لبشرٍ استمتعوا بقرب حجرتهم ومشاعرهم وأرواحهم لدرجة أدهشتنا، فوجئنا فى اليوم الأخير بخروجنا دون أن نحس بأجسادنا، وغادرت أرواحنا الحارة وبيت الشيخ "بيومى" دون أن ندرى هل سنعود إليه أم لا".

قالت بدهشة : "كيف سنخرج من الجزيرة؟" تجاهلتها لنواصل سيرنا إلى طريق غريب يصل الجزيرة بصحراء بعيدة، مشينا عليه لنعبر المياه، وحينما اعتقدنا أننا وصلنا لبر الأمان، شاهدنا أبوابًا ضخمة لمخازن مُتراصَّة بجوار بعضها البعض، لم يكن هناك إلا الأسوار المرتفعة، بدأ ظلام الليل الكثيف فى الانتشار السريع، قلت: "خلف الأبواب سنجد الطريق الذى يوصلنا لشقتنا".

حين وضعت يدى على باب أحد المخازن فوجئت بفتح أبواب كثيرة، دخلنا مذهولين، أحاطت بنا حوائط مرتفعة من كل اتجاه، قبل أن نكتشف باقى المكان أُغلق باب المخزن علينا،

كان الظلام الدامس رهيبًا، شاهدت وجهها كالقمر، قلت: "لا تخافى أمسكى برقبتى، سوف نفتح أحد الأبواب ونصل للطريق المؤدى لشقتنا".

أسندنا جسدينا على بوابة كبيرة باعتبارها أحد الحوائط، فوجئنا بفتح بوابات كثيرة، دخلنا من احدي ابوابها فأحالنا إلى مخزن آخر، دخلنا مسرعين من بوابته المفتوحة فأغلق بعد دخولنا، اختفى ضوء السماء ونور النجوم، وفوجئنا بأحد الأبواب يفتح ويدخل منه أحد الصبية الملتحين، ويمسك سكينًا كبيرًا فى يديه قائلاً: "من أنتم؟" قالت: "نحن كنا فى قرية بعيدة يوم الأمس"، قال : "ما معنى الأمس؟" لم أرد وسألته عن المخرج.

فجأة لم تعد بجوارى، سألت الصبى عن أصحاب المخازن، قبل أن يرد سمعت صوتها يصرخ، اتجهت إليها كان الدم يسيل من رأسها، احتضنتها، وقالت: "حاول عدة صبية خطفى وضربى".

الشىء الغريب أنها كانت تضحك باندهاش وبصوتٍ مسموع، وأستكملت: "قلت منهم بمعجزة، لكن قدم أحدهم طالت مؤخرتى، وضربتنى فابتلت ملابسى ببقايا الطين والزرع الذى كان بقدمه"، نظفت ملابسها ومؤخرتها، وأمسكتها من يديها وقلت: "لا تتركينى أبدًا، سوف نصل لشقتنا بسلام"، لم تكن تسمعنى، كانت عيناها تبحثان عن الصبية.

فجأة وجدت أحدهم يحاول الإمساك بها وهى تضحك بتردُّدٍ وخوف، اقتربت منه وأمسكت ملابسه، ولففتها حول رقبته، ودخلت بكل جسمى وطاقتى لخنقه بالحائط، كان يصرخ ويقول: "أنا بلدياتها، أنا قريبها من ساحل سليم، إحنا صعايدة زى بعض ما تخافش منى"، لكن يدى لم تنفك عن رقبته إلا بعد أن تجمَّع الناس حولنا، حاولوا إبعادى بعد جرجرته على أرض المخزن محاولاً إلقاءه فى الفضاء الواسع المظلم الذى كان يحيط بالمنطقة.

قالت: "اتركه لحاله، إنه قريبى"، كنت قد عزمت على إعطاء هؤلاء الصبية الأشرار درسًا فى الإجرام يفوق تصورهم ليتركونا فى حالنا، فجأة أقترب الطريق السريع منا والسيارات المسرعة أخترقت الظلام الذى قارب على الهروب، لم تترك يدى رقبته وهى تصرخ مندهشة خائفة كي أتركه لحاله.

لا أدرى فى هذا اليوم هل مات قريبها بقبضتى أم ظل حيًا، لكننى أتذكر ان اشعة الشمس ضربتنا فصحونا من نومنا ووجدنا سيارتها التى تعطلت على جانبى الطريق السريع.

ابتهجت وقبلتي قائلة: "أنا معى أكل وعصير، ياله علشان نأكل"، نزلنا من السيارة وافترشنا الأرض، وجلسنا فى الفضاء نتلذذ بالخبز والجبن دون خوف، كانت الشمس قد اكتملت ولم يعد أثر للظلام.

"الذهول "

طاردنا فى يوم أحد الرجال الذى لم أتعرف أبدًا على ملامحه، فقلت لها: "لا يمكن أن نستكمل هنا"، قالت: أين سنذهب؟" قلت: "هناك مدينة قريبة يمكننا العيش فيها".

وضعنا أثاث الشقة البسيط على سيارة نصف نقل، واتجهنا نحو المدينة الجديدة التى لم تكن منازلها كاملة البنيان، وقفت السيارة أمام منزل من دور واحد، أنزلت مع السائق أثاث الشقة القديمة التى كنا نعيش فيها بمدينة الزهور إلى داخل الشقة الجديدة المكونة من حجرتين وصالة وتشبه مخزن لورشة خراطة، مع ذلك كانت المبانى الجديدة حولنا تدلل على أن هناك شيئًا لم يكتمل، قالت : "لا يهم سوف أقوم بترتيب كل شيء حتى تشترى بعض الطعام".

أخذتنى قدمى إلى ناحية بعيدة بالمدينة لأجد نفسى جالسًا على مقهى ملئ بالبشر، يطل على حارة صغيرة تفصل المدينة الجديدة عن المبانى القديمة التى يسكنها فلاحون مثل أهلى الذين كانوا يعيشون فى الماضى.

قمت من على المقهى أبحث عن مطعم أو محل؛ لأشترى بعض المأكولات لأحقق رغبتها، أخذتنى قدمى لحارة ضيقة متصلة بحوارٍ ضيقة أخرى تمتلئ بالنساء الريفيات والأطفال، فجأة وجدت نفسى وسط حقول مترامية الأطراف، سألت الناس: "أين تقع بلادكم؟" قالوا إنَّها قرية بمحافظة الشرقية على أطراف مدينة العاشر، لكن أهل القرية أخرجوا بطاقتهم لأتأكد من محل إقامتهم، كان العنوان مكتوبًا بوضوح قرية النسيان محافظة الفيوم، سألتهم عن اختلاف عنوانهم المكتوب بالبطاقة عن اليافطة التى ظهرت عالية لمحافظة الشرقية، قالوا ببساطة: "اسأل السلطات".

سرت مع الفلاحين على طرق طويلة تفصل الحقول والأحواض، شاهدت بنفسى الفلاحين يجمعون الطماطم، ويضعون الأقفاص على سيارات نقل، فجأة وجدت نفسى على أطراف الحقول بجوار الصحراء المترامية، كنت أتعجب من التقسيمات الرائعة لحقول القرية، خاصة أن الصحراء تحيط بجوانبها، اختفت المدينة الجديدة التى تركت فيها حبيبتى تعيد ترتيب أثاث الشقة الجديدة.

تركتهم مسرعًا وسط الحقول متجاهلاً مشاجراتهم، وهم يربطون جلابيبهم فى وسطهم حتى لا تبللها المياه، وعدت على نفس الطريق، تغيرت وجوه الفلاحين رغم أنهم نفس الأشخاص الذين شاهدتهم منذ ساعات، ووجدت نفسى بمدخل حارة تطل على حقول ذرة موحشة، شاهدت الفلاحات يربطن شعورهن، ويلففن رؤوسهنَّ بطرح سوداء، ويلبسن ملابس فاتحة، ويرحبن فى

خوف بوجود المذهول في قريتهم، لم أرد عليهم، هرولت بالحوارى التى امتلأت بالأطفال الذين كانوا يفسحون الطريق باندهاش وخوف، ووجدت نفسى مرة أخرى أمام المقهى التى كنت أجلس عليها منذ ساعات، ظهرت أمامى المدينة الجديدة التى تركت فيها حبيبتى، حاولت تذكر شقتنا الجديدة وسط البيوت المتشابهة، لكنى لم أتمكن.

قلت لنفسى: "أتذكر ملامحها ومدخلها"، لكن المبانى الشبيهة أذهلتنى مرة أخرى، جريت مفزوعًا باحثًا عنها وسط المداخل العديدة، كان السكان ينظرون إلىَّ بغضبٍ ودهشة، لم يتفوه لسانهم سوى بكلمة واحدة وهي نفس الكلمة التي نعتوني بها جيران شقتنا القديمة المحاطة بزهور البنفسج.

"الفجر"

كيف استطاعت أن تُسلّط الضوء والنّور على قلبه ليتركها هناك وحيدة، دون أن يقول لها كلمة "وداع"؟ كيف استطاع أن يغدر بّها كعادته؟

لم تهن عليها قسوته التى تعودتها منه، فقامت حزينة تمشى وراءه، وجدها أمامه داخل مبنى كبير أشبه بالمدرسة أو بالمستشفى، يحتوى المكان على حجراتٍ كثيرة ومفتوحة على بعضها البعض، كان يستمع لمحاضرة، انتظرته طويلاً لتقول له "مع السلامة"، كانت حزينة، وقالت بعد أن نهرته بحبّ وغضب: "إخس عليك، أنا "ضُحى" حبيبتك، إزاى ما عرفتنيش؟!!"

لم يستطع أن يتخيّل جُرمه فصمت، وقالت: "أنت عامل إيه؟!" ردّ عليها ببرود:"كويس"، قالت لنفسها: "كيف حضر لهذا المبنى، دون أن يتّصل بى؟! كانت حزينة، وهو يقول: "عاملة إيه؟!!" عرّفته على الأصدقاء الذين يحاضرون له: "الدكتور فلان، الأراجوز فلانى"، قالت حزينة: "هذا المبنى الفخم هو بيتى، لكن لماذا حضرت إلى هنا دون أن تهمس بأذنىَّ؟!" قال دون أن ينطق: "أنتِ حبيبتى.. ليس لقلبك بديل، لا يمكن تعويضُكِ أبدًا".

لم تهن عليه نظرة عينيها البريئتين، فاستأذن وتركها وحيدة، انهارت الدنيا تحت أقدامه، مرات عديدة تنهار الدنيا، ولا يدرى أين يذهب!!

قال لنفسه: "سأكتب فى يومياتى تائهة وبعيدة عنِّى، الوصول لقلبها يعنى المستحيل"، كان الفجر يقترب من عيونه، أراد أن يصنع إنسانًا آليًا يخرج من بيته لعمله، ويعود للمقاهى ناسيًا المرض، ثم يعود آخر الليل لمنزله وأولاده مهدودًا غير عابئٍ بمستقبل أحد، قالت فى المشهد الأخير تُندّد بصمته: "هؤلاء المساكين الذين ينتظرونك خلف الممرات وعلى الطرق والكبارى مُتمنِّين عودتك، هل تستطيع نسيانهم، أو الغدر بهم؟!!"

انهارت الدنيا تحت أقدامه، ولا يدرى كيف تمكَّن من الهبوط إلى هذا المكان المُوحش، ولا يدرى كيفية الخروج، تذكّر ببلاهة صُراخها فى وجهه صباح الأمس: "افهم يا حمار!"

حين رأيتُها بالمبنى المظلم والشبيه بالمستشفى كانت قوية وهى ترمقنى وأنا أسمع المحاضرة، لا أتذكّر تلك اللّحظة ماذا كان يقول المحاضر، أو من يجاورنى؟!!! لكنّى أتذكر أنّنى عُدت معها راكبًا الميكروباص، نزلت معى درجات سلَّم المبنى، لم تتحدّث، أو تفتح فمها ركبنا جوار بعضنا، انهارت اجسدانا، تفككت رغم أننّا لم نتحدّث، الميكروباص كان يسير على

شاطئ نهرٍ كبير تظهر من خلفه الزراعات والبيُوت فى الجانب الآخر، بينما كانت على يسار الطريق بيوت فخمة عالية مُذهلة، كانت أشبه بمبانى مدينة ساحلية كنتُ قد زرتها فى أحلامى، لا أتذكّر اسمها، كنت أركب معها التليفريك، وأشاهد الحدائق من تحتنا تنشر رحيقها المُبدع.

فجأة قلت لسائق الميكروباص: "على جنب يا أسطى"، لم تنبس بكلمة؛ لكنّها أخذتنى فى حضنها، كانت جميلة رغم كلّ الحزن، قالت: "لا يهم، أنا أحبّك رغم أنك تتركنى دائمًا وتفارقنى"، كان حضنها طويلاً، عانقتنى أكثر من ساعة، وقالت: "لا يهم اتركنى، سأظلّ أُحُبك"، طهّرتنى وقفزت من السيارة.

كان المشهد المُروع والمُذهِل ظهر اليوم حين قابلتها صدفة، وهى تقول: "عامل إيه يا أستاذ؟" واختفت، ودّعتنى فى صمتٍ، إنّها ملاك الحب الذى لا أستحقّه .

"**الوجع**"

قررت فى هذه الليلة أن تقتله، ودون أن تفكر كعادتها حزمت أمتعتها وغادرت، قالت له قبل غلق الباب: "كان عندى عشم فيك للنهاية.. خسارة".

رفعت حقيبتها فوق كتفها، نزلت درجات السلم، كان قلبها يحترق، اقتربت من سيارتها، فتحت الباب بقوة، وألقت بالحقيبة المملوءة بالملابس الداخلية على المقعد الخلفى، أدارت مفتاح السيارة بعد غلق الباب دون أن تدرى أين تتجه، كم مرة نزلت من شقته دون أن تعرف مصيرها ومع ذلك كانت تعود، اعتقدت أن هناك أملاً فى إصلاحه، فى هذه المرة لم تتردد لحظة لتتركه للأبد، دهست كل ما يربطه به، بدأت مرحلة جديدة سوف تخطو بنفسها كل خطواتها وحروفها.

عشر سنوات وهى تحاول هدم قسوته، كم مرة فتحت أنهار الحب لتدفئ روحه، آلاف المرات حلمت بعودته مؤمنًا بعشقها وقلبها الطيب، لكنه كعادته كان يفجعها بالأخبار المفزعة حول المصير المحتوم للفشل.

كم مرة قالت له: "حاول أن ترانى، أن تحس بوجودى"، لكنه كعادته يخرج متوحشًا مشككًا فى قدرتها على الصمود.

تعود اليوم حزينة على تغير ملامحها وروحها التى سرقها، لتقرر دون تردد قتله، كان يتصور أن تعود بسكين كبير أو بمسدس لتفرغ طلقاته فى قلبه المغشوش، وقف ببلكونة الشقة التى غادرتها منذ دقائق منتظرًا عودتها بالسيارة وهى تنظر إليه فى غل، وتضع بدم بارد أطراف سكينتها فى قلبه، لكنها المدربة على العشق كانت تعلم أن مقتله فى الغدر، فقررت فى رحلة العودة أن تُلقّنه درس الوجع.

أوقفت سيارتها أمام كشك صغير، نزلت بهدوء، اشترت زجاجة مياه وهى واثقة من قوتها، قالت لنفسها: "من يضاهينى فى الحرمان سوف أسكب بقلبه الخِسَّة"، أفرغت زجاجة المياه كاملة فى جوفها، نظرت للسماء الملبدة بالغيوم، فعصت زجاجة المياه قبل أن تلقيها فى السلة أمام الكشك، وقالت لنفسها: "يستحق الهجر، لن أتوانى عن قتله".

"المواجهة "

تقع شقتها بالدور الثالث وتطل على مساحة واسعة مرصوفة ومحاطة بالأسوار ، ركنت سيارتها ودخلت باب العمارة، لم يكن البواب بحجرته، نظرت لشبابيك الشقق الكثيرة المغلقة، أصيبت بالفزع، لم يكن هناك وسط هذه الصحراء أى ملمح للحياة إلا أصوات الرياح، طلعت على سلالم العمارة حتى مدخل شقتها، فتحت الباب وألقت بحقيبتها على كنبة الأنترية المتربة، جلست صامتة تتوحد مع هذه المساحات الواسعة حول عمارتها، فتحت كل الشبابيك ليدخل هواء الصحراء الموحش يطرد الأموات.

قالت لنفسها: "الثلاجة مليئة باللحوم والطعام، أمكث هنا بعض الأيام"، أغلقت سماعة التليفون، قامت لتزيح التراب العالق على الحوائط والأثاث، قررت مسح بلاط الشقة، واعادة ترتيب الأثاث، غسلت ملابسها المليئة برائحته، امتلأت قوة وقامت لتنهى المهمة، دخلت الحمام لتغتسل بعد أن نظفت كل الأتربة العالقة بالشقة، شغلت السخان لتنظف ما تبقى من الغبار فى روحها.

دق باب الشقة، التفت بروبها، لفت شعرها بفوطتها البيضاء وفتحت الباب، كان البواب العالق تحت السلم قد صحا من النوم، قال لها: "عايزة حاجة يا هانم؟" قالت: "شكرًا يا عم حسن!" أطمأنت لوجوده تحت الباب، قالت لنفسها: "لن يدخل "أيمن فى وجوده أبدًا إلى هنا "، أغلقت الباب وقالت: "خلى بالك من العربية !" لم تسمع إلا حفيف الريح المزعجة حين هم بالنزول على درجات السلم.

عاد "أيمن" بغروره لذاكرتها، حاولت أن تشغل نفسها بالأفلام التافهة، لكنها لن تنسى صوته البذئ وهو يلقى قمامته فى وجهها ، كان يشك فى علاقتها بأصدقائها، ويطالبها بقطع كل أواصر الحب بينهم، لم يفهم أبدًا أنه السبب فى علاقاتها الكثيرة التى لولاها لتفحمت روحها، قالت لنفسها: "لن يتمكن أبدًا من الوصول إلى هذه الشقة البعيدة".

لم تتصور أبدًا أن ينكر كل حبها فى لحظة غضب، حين أعلن فى وجهها بثقة عن معاشرتها صديقها الوسيم، قالت: "غور فى داهية"، وتركت نفسها للمجهول.

كانت تعلم بخبرتها أن العلاقة تفحمت فأرادت أن يكون هو صاحب قرار الانفصال، رتبت ببراعة للقاء يجمعه مع صديقها الجديد لتعلن فى جراءة عن حبها، أذهله ملامسة يديها ليد

صديقه، حين وضع أطراف أصابعه على كتفها أمامه، قال: "أتغدرين بحبى؟" ردت ببراءة على نكرانه: "صديقى يحترم اختياراتى"، فاتهمها بالخيانة.

تركته دون أن تندم على الماضى الذى رتبت بداية نهايته، فخورة بقوة قلبها على اكتشاف حقيقة مشاعره.

نظرت للمرآة، كانت عيونها تشع براءة، أمسكت التليفون واتصلت بصديقها الوسيم تصف الشقة التى استأجرتها على أطراف الصحراء، قالت وهى تغلق السماعة بعد أن شرحت الطريق الذى لن يستغرق أكثر من ساعة: "سوف أقوم بتجهيز اللحمة بالبصل التى تحبها"، طلبت منه أن يأتى لها بكيس التفاح التى تحبه.

دخلت الحمام ونظرت للمرآة مرة أخرى، أيقنت أنها جميلة، فتشت عن "أيمن"، لم تعد تتذكر ملامحه، أذهلتها قوتها وقالت: "صديقى الوسيم سوف يحضر، ويجب إعداد الوجبة الشهية التى يحبها"، خرجت من الحمام وأغلقت التلفاز، فتحت جهاز الكمبيوتر لينطلق صوت "صباح" فى الصحراء مغردًا، ومفتتًا أنوثتها وهى تنتظر.

"البئر"

فى طرف المدينة شاهدت فريقين يربطونها بجبال طويلة ويشدونها كلا في اتجاهه، خمسون رجلاً وامرأة يحاولون جذبها ناحيتهم بعد إلقائها بقاع البئر، كانت تقاوم وتضحك، وتنادى عليهم ليقتربوا من قلبها، الكل حاول شم رائحة ثديها، أصدقاءها القدامى وأهلها، كل من رأى عيونها يرتبط بقلبها بحبل متين، ويحاول شدها ناحيته، كانت تقاوم الانصياع لأحدٍهم ، فيلفون الحبل المتينة حول جسدها، يلصقونه بمهارة بين أطراف أصابعها أو داخل جفونها، الجميع أصر أن يجذبها ناحيته ليحصل عليها وحده.

لكن قدرة الخالق جعلتها تتوسط دائرة البئر، والجمع المحيط يحاول سحبها الي ناحيته، كاد جسدها وأعضاؤها وعظامها تتفتت، لكن العجيب أنها كانت تسخر منهم جميعًا وتضحك رغم الألم.

البئر عميقًا لم يرَ أحد نهايته، يثق الجميع بأن من يقع فيه سوف تتمحى ذاكراته، حاولت مكاتب الأمن السرى والعلنى والفاشلين والمبدعين أن يحصلوا على صداقتها، جمعت بحرفة حولها أشخاص من كل المهن والأعمار، صادقتهم أيامًا وشهورًا وسنين، ربطتهم جميعًا فى روحها بحبل متين، لكنها تبتعد حين تفقد البوصلة والتوازن.

تبحث عن علاقة جديدة لتشم فيها رائحة الحرية، رغم القيود التى تلتف حول رقبتها إلا أنها لم تتوقف عن السير فى طريقها للنهاية، اعتقد الجميع أن بها شيئًا يملكه، كأنها خصته عن كل البشر ، رغم أنها تفارقهم، لكن هذا الخيط الثمين الذى يحسوه يظل يربطهم سنينًا طويلة، لم يجرؤ أحد على قطعه، أرادت أن تجعلهم جميعًا يحيطون بها، لم تكن تدرى أن هناك لحظة لا يمكن أن تتواصل فيها مع الجميع بهذه الطريقة المذهلة.. لكن الجميع أصر على أنها تستحق الحياة، بعد أن ألقوها بالبئر، وجدوا أنفسهم مرتبطين بها بحبل قوى، فحاولوا نجدتها حتى لا تجرهم وراءها إلى القاع.

كادوا أن ينزلقوا وراءها، لولا أنهم شدوا طرف الحبل فظهرت بمنتصف البئر أمام أعينهم كدمية غريبة تحاول النجاة من الغرق والفقد، حاولوا نجدتها، وشد كل منهم ناحيته طرف الحبل عن آخرة ، ظهرت كأنها عباد الشمس الذى يعطى للجميع لونه ورائحته ولا يبخل على أحد سواء بالليل أو النهار، كنت الوحيد الذى لم تتمكن من توصيل حبالها القوية إلى قلبه، فوقفت بجوار البئر مرتعبًا من موتها المشين.

كنت أجرى حول الخمسين رجلاً وامرأة أطالبهم بشد الحبل عن آخره بهدوء حتى لا ينقطع، ونفقد عبير المرأة الوحيدة التى لم تبخل على أيٍّ منا بدفء عينيها، لم يدرِ أحد من المحيطين بها فى هذه اللحظة من ينعم بحبها، كنت الوحيد الذى أراقب جنونها عن قرب طوال الفترة الفائتة، حذرتها من علاقتها بالمخبر والخائن والمدمن والفاشل، لكن قلبها المملوء بالحب يسخر منى، ويقول فى قوة: "ما ذنبهم فيما وصلوا إليه".

الآن لا وقت للعتاب، يكفى أن يترك كل من وهبتهم الحب حبال الوداد لتسقط وحيدة بقاع البئر، ونفقد جميعًا رائحتها، صرخت: "لا تخافى سوف أنقذك"، لم تفهم كلامى، كانت سعيدة بكل المحيطين بها ولا تجد أى خطر من الوقوع فى القاع الذى ينتظر سقوطها، لكن مهمتى صعبة لأشرح لخمسين شخصًا فاقدين الإحساس ويحيطون بالبئر بخطورة ترك أحدهم الحبل.

أناديها لأطمئنها حتى لا تفقد الأمل، تسخر من لهفتى وخوفى وتدعى جنونى، كنت الوحيد الذى أعلم النهاية القاسية التى تنتظرها بمجرد تركها هؤلاء المتواصلين معهاحبل الوداد، سوف تسقط فى الهُوَّة الساحقة، حين يتركون الحبل، ولن يتذكروا شعرها المفرود اورائحة عرقها التى جعلتهم جميعًا يرغبون في الحياة، كنت أقول لنفسى فى حسرة: "لا تستحق هذه النهاية البشعة" .

الحبال تلتف حول رقبتها وشعرها المفرود لدرجة أنها حولت شعرها البنى إلى ضفائر قاسية، هذه الضفائر هي الأمل الأخير لنجاتها لأن الجميع بدأ يوثق حبال الوداد بشعرها، تدلى جسدها وسط البئر وهم يشدونها ، صرخت مبتهجة باللعبة، لم تدرِ أنهم يلقون نشيد الموت الأخير لتوديعها، أحسست بالخطر والمسؤولية، قلت لنفسى: "لا تستحق هذه النهاية المفجعة".

صرخت فى السماء والأرض، وصل صوتى لقاع البئر الغويط متوسلاً نجاتها، لكن المجرمين أغلقو آذانهم، وتلذذو بحكايات عن مفاتنها، تسامرو مع بعضهم البعض حول قوتها فوق السرير وهم يشدون خيوط التواصل لقلع شعرها من رأسها، قال أكثرهم قبحًا: "يكفى أن أنام معها عدة ليال لأنعم طوال العمر برائحة عبيرها الفتان"، قالت البنت اللعوب التى ادعت صداقتها وهى تشد نفس السيجارة المملوء بالمخدرات، وتحتضن رجلها الخائن : "إنَّها المرأة التى تستحق أن تموت كعاهرة".

أسمع هذه الأحاديث، وأدافع عن حقها فى الحياة،اقف على حافة البئر أرفض ما يتفوه لسانهم بالأكاذيب عن قلبها الخاوى، واقول لنفسى: "لو كانت كذلك ما تمناها الجميع، وشد حبل الود ناحيته بأقصى قوته وتمنى عودتها إليه وحده، لو كانت كذلك ما كنت أنام عشرين عامًا

أحلُم بحضنها الدافئ ورائحة زهورها المنتشرة حوالى كل صباح، لو كانت كذلك ما كان قلبى انفطر حزنًا فى هذا اليوم وأنا أشاهد المجرمين يحولون اغتيالها فى البئر.

كان لابد من استحضار قوة هائلة لإنقاذها من فقد ذاكرتها والعبث برائحتها والخروج بها سليمة.

صرخت استحضر القديسين والملائكة وأولياء الله الصالحين، لينقذوها، وجدت نفسى أتحول لنسر، طرت فوق البئر محملاً بسكاكين كثيرة صغيرة، كنت أقطع من حولها حبال القهر والغل والطمع، وأضع بدلاً منهم سكينًا صغيرًا فيتحول لجناح طائر جميلاً يدخل بين أحشائها، تمكنت من تقطيع أواصر الشر التى تربطها بهذا العالم، فجأة وجدتها فوقى تتحول ليمامة بيضاء تغرد للفجر، طارت مذهولة كأنها تتعلم الطيران بأجنحتها البيضاء الكثيرة، طارت مبتهجة غير متوقعة هذه النهاية المبهجة.

طارت فوقهم جميعًا بعد أن وقعوا بأحمالهم الثقيلة التى كانوا يضعونها بالأواصر المزيفة التى ربطوها بقلبها البرئ، كانت مندهشة لأنها لم تتوقع أنها بهذا الجمال والقدرة على الطيران، تركتهم جميعًا حول البئر تلفهم القيود التى حاولوا لفها حول أعناقها وبضفائر شعرها ، وطارت بعد أن تحولت لحصان أحمر مملوء بقوة الجبل لتتخطى هذه المدن.

شاهدت ربوة عالية بعيدة، تمنت أن تصل إليها، لم تعينها أجنحتها الرقيقة على الوصول لقمة الجبل العالى المملوء بالزهور البديعة والتى يشع برائحته على الجميع.

رغبت فى شم رائحة العبير التى طالما نشرته على الجميع ولم تنل إلا البغض، أسقطت السماء حصانًا أبيض فامتطته اليمامة البيضاء، وانطلقت وراءه بجوار حصانها الأبيض مخترقين المدن والقرى، راغبين الوصول لقمة الربوة، حين وصلنا لقمة العالم أحست بالسمو، شاهدت أسراب الحمام الأبيض واليمام يغنون حولها بعد أن تركها الحصان وسط الزهور تنعم بالباقى من العمر برائحة أجمل زهرة ملأت العالم بالحب.

"البريئة"

كانت شقتنا بالدور الثانى بالمساكن الشعبية بالمدينة العشوائية مملوءة بهجة، تنظر ناحيتى بود وهى تلبس قميص النوم الذى يظهر مفاتنها وتقول بصوت عالٍ وشعرها المحلول المتطاير حول عينيها يشع بكارة: "ابق هات عشا معاك"، كنت أعيش كالملك، أرتدى قميصًا مفتوح الصدر، وبنطلونًا ضيقًا، وغالبًا ما كنت أضع بيدى قطعة حديد أو شمروخ.

أجلس على المقهى، ألعب مع الأصدقاء والشباب الطاولة والدمينو والكتشينا على المشاريب، لم نكن نترك أى قرش فى جيوبنا إلا ولعبنا عليه، حين أعود من الشارع الواسع الذى ينتصف المساكن آخذ من أى صديق عشرة جنيهات، أشترى الفينو والجبنة واللبن، وأطلع لشقتنا.

أجدها مشغولة بالتليفون تتحدث مع أصدقائها وصديقاتها، كانت تشتم فيهم بحب وعشم، حين ترانى تستأذن منهم وتأخذنى فى حضنها أتلمَّس دفء ثدييها الطريين، تأخذ أكياس الخبز والجبن من يدى، تذهب للمطبخ لتعيدهم بأطباق بلاستيكية، تفترش الأرض لنأكل ما لذَّ وطاب من الطعام، تتاكفنى وتسبنى، وتلعن اليوم الأسود الذى رأتنى فيه ثم تأخذنى فى حضنها، وتقول: "إحنا هنبقى مع بعض للأبد علشان الزمن الوسخ".

أتلمس بكارة صوتها وبراءة عيونها، أتدفأ بروحها، أغوص فيها ساعات طويلة ، أتمدد بجوار الحائط فتحتضن ظهرى، أقوم من النوم على صراخها مع جارتنا التى تسبها بأوسخ الشتائم، لأن صوتنا فى الليلة الماضية أزعج كل سكان البلوكات.

اقوم مسرعًا وأشدها من قميص نومها الي مدخل الشقة، وأغلق الباب واقول: "لا تردى عليهم يا شرموطة".

تصفعنى على وجهى وتصرخ: "إياك أن تصفنى مرة ثانية بهذا اللفظ"، تبكي وتقول: "أنت تعاقبنى لأننى أحبك"، آخذها فى حضنى، أطبطب على ظهرها ، أمسح دموعها بلسانى، وفى غفلة منها أتركها وأنزل للشارع.

الحارة ساعة المغربية تعجُّ بالباعة والنساء والأطفال، اقترب من المقهى القريب من الميدان الفاصل بين المساكن والحى، أسحب "كرسى"، وأجلس وحيدًا أتأمل البشر.

الليلة لن تمر بسلام، قال "أحمد" القهوجى دون أن ينظر بوجهى، حاول أصدقائى مداعبتى، أخرج أحدهم سنجة طويلة ووضعها أمامى، وقال: "لا يهمك أحد نحن يمكننا قتل الجميع"، لم

أهتم لأنَّ صوتها حين طالبنى بعدم وصفها بـ "الشرموطة" أفزعنى، قلت لنفسى: "كانت ساعة غضب حين نطقها لسانى، لماذا أخجلها هذا اللفظ مع أنى أسبها دائمًا بأقذع الشتائم؟!"

قمت وحيدًا مغادرًا المقهى، لم أسمع تعليقات أصدقائى عن الهروب من المواجهة، حين وصلت لشقتنا التى كانت تشع بهجة لم أجدها، سألت الجيران، قالوا ببساطة: "أخذت شنطة ملابسها ورحلت".

"الحلم"

أين تقع هذه المدينة البديعة التى ملأت فناء منازلها الأشجار الوارفة، يتساقط رذاذ المطر على زجاج شبابيك شقتهم فى براءة، تعيش بالدور الأرضى فى منزل يطل على ميدان كبير مزروع بأشجار متنوعة من الفاكهة، يتوسطه حمام سباحة تلعب حوله النسوة والرجال دون أن يخدش حياءهم أحد.

تلبس روبًا حريريًا، ممزوجًا بلون البنفسج ومفتوحًا من على الصدر مظهرًا نهودها الرائعة، تفتح شيش بلكونة الحجرة المطلة على الميدان، يأتى الربيع مُحمَّلاً بالبكارة، معلنًا ميلاد ثمار البرتقال والمانجو، تتحول الدنيا بفعل رائحة زهور الفاكهة إلى جنة.

قالت وهى تمسح بأطراف أناملها ظهره وشعر رأسه: "الفطار فى البلكونة جاهز ينتظر طلتك السحرية"، المدينة التى لم يعرف اسمها أو موقعها تلتف بيوتها حول الميدان فتبتهج العيون بروح الحياة وتظلل السماء بروائح بديعة، كأنَّ العالم لم يُخلق إلا هذا الصباح.

يخرج للبلكونة بملابس النوم، يجلس على سجادة وضعت عليها البيض المدهوس بالبسطرمة والزيتون، والحليب الصافى؛ ليأكلا وسط أعراف الأشجار المطلة على شقتهما، ويراقبان النساء والرجال وهم يداعبون بعضهم البعض حول البحيرة فى سلامٍ مدهش.

مبانى المدينة المطلية باللون الأبيض اللامع تظهر أجمل ما فيهم، ينزلون مُتأبَّطين يد بعضهم، ويتجهون لسماء المدينة المفتوحة دائمًا، يلفون وسط الميدان ممتلئين بالحب المشع من وجوه الجميع .

ينظرون لعيون بعضهم فيعودون لشقتهم بعد امتلاءهما بالنور، لم يكن أحد ينظر إليهم أو يراقب نبضهم، الجميع كان يغرق فى العشق، الأطفال المبتهجون بألعاب الماء يسحرون الأرض بالسير عليها، النساء العاريات ينضح صوتهن عذوبة، الرجال العاشقون يمتلؤون سحرًا ورقة، تفتح باب الشقة، وتحتضنه بدفء لم يشعر بمثيل له.

ظلت حياتهم بالمدينة المبدعة على هذا الحال زمنًا طويلاً، لم يتوقعوا أبدًا أن خارج المدينة يوجد بشر مثلنا، حين قررت الرحيل فجأة لم يكن يتخيل أن يفارقها أبدًا، لكنها قالت: "غدًا سنعود".

فتح لهم أحد الأشخاص بوابة المدينة باكيًا، ركبوا السيارة عائدين الينا، فجأة انزلته واستكملت الطريق الي منزل لا ترغب في العيش به، بينما هو سار في شارع طويل ليجد نفسه وسط الحى الذى اعتقد أنه اندثر.

الورَّاق

٢٠١١